www.kotobarabia.com

ثروت أباظة

نقوش من ذهب ونحاس

www.kotobarabia.com

نقوش

من

ذهـبٍ ونُـحـاس

ثروت أباظة

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

١

هي قصة ذات عروق بعيدة في أغوار الزمن. لست بطلا من أبطالها ولكنني أحب أن أحكيها.. كيف أحكيها وأنا لست واحدا من أبطالها.. هل يهمك كثيرا أن أكون من أبطالها مادمت سأرويها لك.. لن أقول لك إنها من واقع الحياة. فلا أحب أن أكون سخيفا إلى هذا الحد. ولكنني في الواقع لست أدري إن كنت أنت تحب الرواية من واقع الحياة أم من واقع الخيال. يقول الروائيون إن أهم شيء في العمل الفني أن يكون مقنعا، ولا يهم من بعد المصدر الذي يصدر عنه. ولكن الحياة حين تؤلف لا تحاول أن تقنع. إنها تؤلف وتنفذ مؤلفها على الحياة وعلى صلات الناس بعضهم ببعض، وعلى بدايات حياتهم وعلى نهايتها ولا يعنيها في شيء أن تكون مقنعة أو غير مقنعة للناس.. الناس جميعا في كل مكان شهود في كل قصة. وأبطال في كل قصة. وقد تلهيهم الأحداث عن محاولة الفهم. وقد يفكرون. والذين يفكرون هم الأغبياء؛ لأنهم لن يبلغوا من تفكيرهم إلى ما تصبو إليه

نفوسهم من طمأنينة. بل هم سيزدادون حيرة وقلقا. بـل قـد يزدادون سخطا وتبرما ولا تعنى الحياة في كثيـر أو قليـل بحيرتهم أو قلقهم أو سخطهم أو تبرمهم.

تجرب فيهم وما يعلمون.

كتجربة الطب في الأرنب.

ولكن هل تجرب فيهم الحياة حقيقة كتجربة الطـب. إن الطب حين يجرب يحاول أن يصل إلى نتيجة معينة مـن تجربته. فإلى أي نتيجة تحاول أن تصل الحياة؟ يبـدو أننـي سأصبح غبيا كهؤلاء الذين يفكرون.. عـادة سـاذجة عـادة التفكير هذه.. وكلما ازداد التفكير عمقا يكون صاحبه أكثـر سذاجة.. فالأذكياء وحدهم هم الذين يعرفون أن لا أمل في أن يصلوا بتفكيرهم إلى نتيجة مؤكدة، واضحة المعـالم. ولكـن هناك أنواعا من التفكير لا بأس بها.. منها ذلك التفكير الجاد الخطير الذي كان يستغرق رائد بك برهـان وهـو جـالس بمكتبه الضخم في سرارياه الواقعة بشارع خيرت..

كان راشد بك يريد أن يسافر إلى أوربا وهو يبحـث عن مواعيد السفن المسافرة. وهو حريص علـى أن يسـافر على أول باخرة.. فقد تشوق إلى باريس وإلى أصدقائه هناك.

ولست في حاجة إلى ذكاء لتعلم أن هؤلاء الأصدقاء إنما هن صديقات. ولكن الحشمة تحتم أن نكتبها أصدقاء. إنهن كثيرات هؤلاء الأصدقاء.

كان اليوم هو السبت، وقد وجد راشد بك سفينة في طريقها إلى (مرسيليا) في يوم السبت الذي يليه. وكان لا بد له أن يبلغ السيدة والدته عن هذا السفر؛ حتى تشرف على تجهيز ملابسه. وترى ما الذي يحتاج إليه قبل أن يسافر. وكان لا بد له أيضا أن يستقل القطار إلى التفتيش ليلقي نظرة نهائية على حسابات الزراعة، ويأخذ ما حصله حمزة أفندي البلاشوني من إيراد الأرض.

وقام راشد بك إلى والدته وراح يصعد السلم إلى الطابق الأعلى في هدوء وفي تفكير عميق. كان السلم يفضي إلى بهو عريض شامخ الأعمدة عميق الفخامة تقوم فيه الأرائك الضخمة عليها القطيفة المزركشة القادمة من جنوا. وكانت والدته قد أنشأت لنفسها في هذا الطابق غرفة للجلوس تستقبل فيه صديقاتها. وكانت أمه (جلفدان هانم) تحب أن تجلس في هذه الغرفة حتى وإن لم يكن لديها صديقات تستقبلهن.

وهكذا لم يكن راشد بك محتاجا أن يتخلى عما يفكر فيه ليتجه إلى الغرفة. إنما هو يقصد إليها دون ومضة مـن تفكير..

إنه يعلم أنه سيفتح الباب وسيراها في كرسيها الكبير المجاور للمرآة التي تواجه الباب. يعلم ذلك ولم يفكر فيـه.. لقد كان مشغولا بما يحتاج إليه من نقود في بـاريس وبمـا سيجده عند حمزة أفندي البلاشوني ويفتح الباب. أمه بجانـب المرآة. والمرآة مازالت تواجه الباب ولكن.. ما هذا الجمـال الذي يقف بجانب صورتي في المرآة.. من هذه؟ كيـف لـم أرها قبل اليوم. وكيف كان يمكن أن أراها. طبعـا سـترفع اليشمك إلى وجهها. لقد بقيت العينـان.. تكفينـي العينـان.. جمال الدنيا كلها في هاتين العينين. لـم يحـس راشـد بـك بالأعين الأخرى التي تعلقت به. ولا أحس بعيني أمه التـي أدهشها وقوفه بعد تأكده من وجود حريم معها. لم يحس شيئا من هذا وإنما ظل رانيا إلى العينين اللتين تطلان مـن فـوق اليشمك. وطالت به الوقفة حتى اضطرت الأم آخر الأمر أن تقول:

- فيه حاجة راشد بك؟

وانتبه راشد بك فجأة لينحني قائلا وهو يقفل الباب:

- عفوا هانم أفندي.

ويعود إلى مكتبه. ويجد جـدول البـواخر ينتظـره فيطويه في هدوء ويضعه في الدرج الأسفل من مكتبه. ويمد رجليه على المكتب ويزيح طربوشه إلى الوراء ويسـتغرق مفكرا في لاشيء.

***

حين يسمع أقدام السيدات تعبر فناء السراي يقف إلى الشباك وينظر إليهن وهن يركبن العربة التي تجرها أربعـة خيول مطهمة. ولم يلتفت إلى العربة ولا الخيول. وإنما تثبت نظره على التي تسير خلفهن جميعا. فلم يكن يشك لحظة أنها أصغرهن. وأنه لا بد لها أن تكون خلفهن جميعا.. إن قوامها أكثر جمالا من عينيها.. أكان لا بد أن يكون لهـذه السـراي سلم للحريم وآخر للرجال.. كنت أريد أن أراها عن قـرب.. وماذا ينفع القرب؟ إن جمالها لا يحتاج إلى كثير من إمعـان النظر.. إنها جميلة.. أو هي فاتنة لا شك في ذلك. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل.. أخطبها.. هكذا مرة واحدة. وماذا يمكن أن أفعل غير هذا ؟

- هانم أفندي.
- إنها ابنة عثمان باشا فكري.
- لا يفوتك شيء.
- وقفتك أمام الباب كانت طويلة.
- عيناها.
- نعم جميلة.
- أنت موافقة.
- لا مانع.

سكت راشد بك ولم يسأل أمه عن شيء.. وعم يسأل.. ابنة عثمان باشا فكري.. الأمر إذن لا يحتاج إلى سؤال.. أما ثروته فمعروفة. كانت ألفي فدان بقي منها بضعة فدادين بعد البذخ الذي كان يعيش فيه. راشد بك لا يحتاج إلى مال. فثروته لا يحصيها العد. وإن كان هو يجيد إحصاءها ويعرف كل خافية منها.. وعثمان باشا رجل ذو مكانة مرموقة في الحياة المصرية. ولا شك أنه تولى ابنته بالتربية المعهودة. فهي تجيد التركية والفرنسية وعزف البيانو واختيار الملابس واستقبال الناس وتنسيق الأثاث وإعطاء الأوامر للخدم.. ولا داعي إذن للسؤال. ولكن أمه.

- لم تسأل عن خديجة؟
- اسمها خديجة؟
- يقولون إنها متحررة في آرائها.
- كم عمرها؟
- بينك وبينها خمس عشرة سنة تقريبا.
- أنا لست كبيرا..
- ولست صغيرا.
- ست وثلاثون سنة اكتمال الرجولة.
- وعشرون سنة بداية الأنوثة.
- ولكنها ابنة عثمان باشا فكري.
- الأنوثة لا شأن لها بعثمان باشا فكري.
- ما رأيك؟
- لن نجد خيرا منها.
- فلماذا إذن المناقشة؟
- أريدك أن تعرف.
- إذن؟!
- أخطبها لك.

٢

المفروض أن أروي لك في هـذا الفصـل موقـف خديجة من هذه الخطبة. ويمكن أن أروي لك هـذا الموقـف بطرق عدة.. فمثلا أستطيع أن أقول إن خديجة كانت تحـب ابن خالتها عزت بهادر الذي نشأ معها منذ الطفولة الأولـى. وكان يقاربها في السن. ومادمنا نتكلم عن هذه الطبقـة مـن الناس فالمفروض أن أقول لك إنه يهـوى ركـوب الخيـل ويجيده. وأنه طلق اللسان – بالفرنسية طبعـا – وأن لغتـه العربية لا تكاد تستقيم. وإنه ممشوق القوام. تافه العقليـة. لا يفكر إلا في أتفه الأمور وأسخفها. وأكون بذلك سـائرا وراء كل من كتب عن هذه الطبقة.

أو كان من الممكن أن أقول مثلا إن عثمـان باشـا فكري دخل إلى ابنته فقال لها:

- أبشري يا خديجة.. عندي لك أعظم خبر.

- صحيح يا بابا؟

وطبعا حين تقرأ "بابا" لا بد لك أن تش البائين؛ فهكذا تنطقها ممثلات السينما في أفلامنا العربية.. نرجع الآن إلـى الحوار الذي كان من المفروض أن أقدمه إليك.. يقـول الأب وقد تهلل وجهه بالفرح:

- جاءك عريس لا مثيل له في مصر.

وهنا كنت سأحتار كيف أكمل المشهد.. هل ستطرق خديجة في حياء؟ أم تراها كانت ستقول:

- من؟

وعلى الحالين كان عثمان باشا يقول:

- راشد بك برهان.

وكنت سأحتار أيضا. كيف تتصرف خديجة بعد هذا ؟ هل كانت ستسأل أباها عن العريس وأحواله جميعـا مـن شكل وعمر.. وطبعا لا داعي للسؤال عن الشهادة أو الثقافة. فقد كانت هذه الأشياء في ذلك الحين بعيدة عن مجال السؤال عند السيدات. وتوشك أن تكون كذلك عند الرجال أيضا.

أم تراها كانت ستطرق حياء وخجلا وتقول الجملـة التي لم يستطع كاتب حوار أن يغير منها شيئا علـى طـوال السنين.

- اللي تشوفه يا بابا.

ولعلي سأخرج من هذه الحيرة بوسيلة أكثـر يسـرا وأقرب إلى منطق الأمور فأجعل خبر الخطبـة ينتقـل إلـى الابنة عن طريق أمها. وأنتهز هذه الفرصة لأقدم إليك كل ما لم تعرفه بعد عن راشد بك برهان على لسان الأم.

ولكن ما العجلة في تعرفك على راشد برهان؟ ولماذا لا تتكلم عن خديجة قليلا.. فأنت لم تعرف عنها إلا أن عينيها جميلتان. ولكنك أنت لم تعرف مثلا. أن قوامها فارع رشيق لا تغطي عليه نحافة. ولا يفرط عليه سمن، وهي ذات شعر ناعم أطلقت عنانه.. هدر على كتفيها في عربـدة طاغيـة. وجبينها عريض فيه ذكاء. وعيناها اللتـان عرفـت أنهمـا جميلتان فيهما جرأة. وفيهما تطلع إلى المستقبل فـي وثـوق الذكي. وفي فتور الأنثى. وأنفها دقيق مائل قليلا إلـى الخـد الأيمن. هذا الميل يراه بعضهم جمالا، ويراه بعض آخر عيبا في جمالها الفاتن.

وإن كنت من الذين يحبون أن يوصفوا بالمثقفين فلعلك تحب أن تعرف شيئا عن ثقافتها.. قرأت كورني وراسين وفولتير وهيجو وفلوبير وروسو. حتى اعترافات روسو قرأته، وقرأت شكسبير مترجما. وقرأت ديكنز وهاردي وتولستوي ودستوفسكي.. أظنك عرفت الآن أنها كانت تحب القراءة، وكانت تعبد الشعر. فقد كانت تحفظ روايات كورني وراسين جميعا، وتحفظ كثيرا من شعر هيجو. ولم تكن تميل كثيرا إلى مضحكات موليير..

كانت القراءة عندها هي الوسيلة التي تفتح لها النافذة على عالم لم يكن من الممكن أن تخالطه أو تندمج فيه؛ فقد كان الحريم جزءا منفصلا عن المجتمع في ذلك الحين.. يحركنه من داخل البيوت ولكنهن لا يشاركن في حركاته.

وكانت خديجة – شأن كل فتاة – تعرف أنها ستتزوج في يوم من الأيام وكانت تعتقد أنها ستتزوج رجلا مثقفا تستطيع أن تشترك معه في أحاديث طويلة عن الشعر والأدب. وكانت الخشية تخالجها أن يكون هذا المثقف ذا ثقافة عربية وإنجليزية. وليس ذا ثقافة عربية وفرنسية. فالمثقفون

في ذلك العهد كانوا جميعا يجمعون إلى العربية ثقافة أجنبيـة أخرى.

ولم يكن الغنى في ذاته أمرا ذا بال عنـد خديجـة. فالغنى عند الأغنياء شيء مفروض يعتقدون هم أنه طبيعي.. يصاحب التكوين البيولوجي لأجسامهم. فالمال عندهم شـيء من المقرر وجوده كما يوجد لها عينان وأنف وشفتان ولكـن الثقافة هي التي كانت نادرة الوجود. فإذا وجدت فهي عميقة رأسية الأصول بعيدة الأغوار. وقد كانت خديجة لا تتصـور أن يكون خطيبها غير مثقف. ولم يكن تفكيرها هذا مجافيـا للصواب. فإن والدها الذي إتاحة لها هذا التثقيف لا يقبـل أن ينالها شخص لا يقف مع ما بلغته من دراسة علـى درجـة واحدة. فإن تفاوتت الدرجة فليكن هو في العليا لا في السفلى. وهي في سذاجتها الثقافية نسيت أن للمال عند الأغنياء نـداء ولغة يفهمونها جميعا دون اتفاق بيـنهم. فمـن الطبيعـي ألا يتزوج الغنى إلا ذات ثراء. ومن الطبيعي أن يسارع الثـري بقبول الغنى خطيب لابنته.

وهذا الاتفاق غير المكتوب بين الأغنياء يتضـمن أن كل شيء غير الثراء يمكن اغتفاره أو تجاهله.

وهكذا لم يكن عجيب أن يقبل عثمان باشـا فكـري خطبة راشد بك دون ريث من تفكير. وخصوصا أنه أصـبح غنيا سابقا. ولكنه مازال يحمل اللقب "غني".

ومن الطبيعي أيضا أن تقبل خديجة الـزواج. فهـي تعلم أنها نهاية محتومة لحياة البنت في بيت أبيها. أو بدايـة محتومة لخلية جديدة من الحياة.

والاسم الذي تقدم لخطبتها اسم شهير في عالم الثراء. وليس شهيرا في عالم الثقافة. فقد كان المجتمع في ذلك الحين لا يلقي ستارا من التجاهل على أي مهتم بالثقافة. فلـو كـان على جانب منها مهما يكن ضئيلا لذاع صيته. بل إن الحيـاة كانت تتيح لمن يهوي شراء الكتب أن يصبح شهيرا في عالم التثقيف، حتى وإن لم يقرأ هذه الكتب. وقد كان أغلـب هـذا النوع من الهواة يكتفي من الهواية بالشـراء دون القـراءة. القراءة لها ناس.. وشراء الكتب له ناس آخـرون. والـذين يقرءون لا يهمهم مطلقا طريقـة الطبـع التـي يهـتم بهـا الشراءون. كل ما يعني أهل القـراءة أن تكـون الحـروف واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض. وقـد يكـون هـذا الوضوح في ذاته سببا في رخص الكتاب لا في غلو سعره.

ولا تنتظر مني أن أفيدك كثيرا في الشروط التـي لا بد منها ليكون الكتاب تحفة أثرية ذات شأن. فأنا مـن ذلـك النوع الساذج الذي يحب أن يقرأ ولا يهمه أن يقتني.

على أية حال لم يكن راشد من القراءين أو الشرائين المدمنين وإن كان ملما بكثير من الكتب. وكان غنيا مـدمنا للغنى. وإن كانت خديجة في آمال اليقظة وأحلام النور ترجو أن يكون زوجها مثقفا يحب كـورني وراسـين أو المتنبـي وشوقي على الأقل، إلا أن هذه الآمال وتلك الأحلام لم تكـن شروطا أساسية في اختيار رجلها. فقد كانت ثقافتها تتيح لهـا قدرا من الذكاء تعرف به إنها هي لا تملك من حرية الاختيار القدر الكافي الذي يسمح لها أن تضع الشروط. ولو توافرت هذه الحرية فما كانت لتجعلها تضع هذه الشروط. فهذه الآمال الأحلام لم تكن إلا خواطر تهفو إلى النفس أو تهفـو إليهـا النفس. ولكن خديجة تعلم كل العلم أنها أمل لا يزيد. أو حلم مصيره المؤكد التيقظ على الحقيقة.

وهكذا أعفتني خديجة من الحيرة التـي خشـيت أن تتولاني أمامك في بداية هذا الفصل، ولم توجه إلى أبيهـا إلا سؤالا واحدا:

- هل أنت راض عنه؟
- وأين أستطيع أن أجد مثله؟
- أمرك إذن.

لم تسأل كم عمره؛ فالمجتمع لم يكن قد أتاح بعد للفتاة أن تسأل عن عمر زوج المستقبل. وإذا كانـت امتنعـت أو منعتها التقاليد أن تسأل هذا السؤال الطبيعي المعقول. وهـي أيضا لم تكن تحب ابن خالتها عزت فـالطرق إذن جميعهـا مغلقة دون أية أسئلة أخرى. بل لعلها لم تكن تحتقر أحدا في حياتها قدر احتقارها لهذا العزت؛ فهو فراغ تجسم في هيكـل إنساني. يعنى كل العناية بشاربه وشعر رأسه. ولكنه لا يبذل أقل عناية برأسه هذا من داخله. فـإن رأيـت تمثـالا، وإن حادثته وجدت التمثال خيرا منه.

فأنا –إذن- لا أستطيع أن أقيم عقبة من أي نوع تمنع زواج خديجة من راشد.

وتم الزواج؟

٣

لو كان المتزوج أحدا آخر غير راشـد لكـان مـن الطبيعي أن يكون شهر العسل في مصر. ولكن راشدا يحب أن يذهب إلى أوربا ويحب أن يبهر زوجته بالحياة الباذخـة التي يعيشها. والفتاة على ثقافتها في بواكير العمر ومطـالع الحياة. فهي برغم يريده راشد أن يتفتح علـى يديـه. وهـو صاحب الخبرة الواسعة عن الورود التي لا تعرف الـذبول. ولا يدركها ما يدرك الورود من شحوب.

يريدها امرأة كاملة المعالم: يدعو إلى بيتهـا كبـار الناس. فيبهرهم من بيته غنى وافر. يصاحبه الذوق الرفيـع. وهو يعلم منها أنها في بيت أبيها كانت تهتم بالكتاب. ولكنـه أيضا كان يقدر أن التي تهتم بالكتاب تستطيع أن تهتم بكـل شيء. وهو يراها في حجرة نومه امرأة ناضجة خبيرة عالمة بما يرضي. ويطمئن غرور الرجل فيه ونزوته في وقت معا.

وهو يريدها إذا ذهبت لمجتمع من النساء أوقعت في نفوسهن الحسرة والغيرة أو الإعجاب والإكبار. ويريد منهـا أن تكون نموذجا للأناقة.

طراز عجيب راشد، فهو قد نال من التعليم المنـتظم قدرا ربما اعتبره البعض ضئيلا. وخرج بعد ذلك إلى الحياة. فإذا هو يصاحب الحياة صحبة عميقة لبقة، ويوغل فيها إيغالا رفيقا في بعض الأحيان، وفيه عنف شديد في بعض آخر من الأحيان.

عرف الناس من كل متجه من متجهات، ودرس من القانون ما يعنيه من القانون، فإذا هو يفوق عتـاة المحـامين ومشاهيرهم، وضار في بورصة الأوراق الماليـة والقطـن فانسكب عليه المال يزيده غنى، وأصـبح راشـد شخصـية مرموقة في المجتمع المصري تضطر الأنظار أن تلتفت إليه. فلم يكن التعليم المنتظم هو المصدر الوحيد للثقافة في ذلـك الحين. بل عن المحامين كانوا يعملون بغيـر شـهادة مـن الحقوق في ذلك الزمن. وقد اختار راشد من الثقافة ما يـرى أنه يحتاج إليه؛ ولهذا لم يكن عجيبا أن يتقن الفرنسية لا ليقرأ بها كورني وراسين، وإنما ليقرأ بها العقود وليضارب بها في

البورصة، وليجتذب بها الأصدقاء مـن الفرنسـيين، وتعلـم الإنجليزية وأتقنها، ولكن شكسبير وملتن وهـاردي وديكنـز كانوا لا يعنون عنده شيئا إلا أسماء يرددهـا علـى مسـمع الإنجليز الذين يتعرف عليهم.

قد كان نوع الثقافة التي يتمتع بها راشد من فصـيلة أخرى بعيدة كل البعد عن تلك الثقافة التي أتقنتهـا خديجـة، حتى لنستطيع القول في ثقة إنه من الطبيعي أن كـلا منهمـا كان يعتبر الآخر غير مثقف.

وراشد يعتبر الحياة عملا ومتعة، وهو يمازج بينهما في مقدرة بارعة، فلم يكن عجيبا أن يصحب زوجتـه إلـى باريس. كان راشد يريد أن يستغني بزوجته عن كـل نسـاء العالمين؛ ولهذا كان يريد فيها كل نساء العالمين.

لم تكن خديجة تتصور أن ترى هذا الذي رأته فـي فرنسا. وكان أبعد شيء عن ذهنها أن ترى هذا الذي رأته مع زوجها بالذات. فالأيام القليلة التي قضتها معه في بيتـه فـي مصر طالعتها منه مهابة لم تر في حياتها رجلا يتمتع بهـا. فحديثه أمر وإن تسربل بالرجاء، ورأيه نهـائي وإن تزيـد

بالتواضع. نوع من المهابة لا يعرفه إلا صـاحب الموهبـة الكبيرة التي تجعل صاحبها كبيرا.

وفي الباخرة إلى باريس.

- تعرفين إنني عشت سنوات بلا زواج؟
- نعم.
- كان طبيعيا أن أعرف نساء أخريات.
- ما دام قبل الزواج فهذا شأنك.
- طبعا أن لا أستأذن منك عـن شـيء صـنعته فـي الماضي.

فلماذا تخبرني؟

- لا أريد أن أخفي عنك أولئك اللواتي عـرفتهن فـي فرنسا.
- أتريدهن أن يكن صديقات لك وأنت متزوج؟
- اسمعي يا خديجة، أنا في صداقاتي الفرنسية لم أكـن أعرف إلا فتيات الملاهي.
- إذن.
- أنا أريد منهن أن يكن تسليتك في فرنسا.
- إذن.

- سنذهب إلى الأماكن التي يرقصن فيها وسيقبلن على وقد يقبلنني.
- يقبلنك.
- وماذا يهمك؟
- لا أريد.
- كنت أستطيع أن أخفي عنك هذا وأذهب بـك إلـى أماكن أخرى وأزورهن دون علمك.
- لا بأس فلنذهب إليهن.
- سيصبحن أداة تسلية لك.
- أنت عندي الآن كل نساء العالم، وستجدين أنك عندي كل نساء العالم، وأنا لا أحب أن أعد بأشياء سأنفذها؛ فإني أحب أن يكون التنفيذ هو الوعد وتحقيقـه فـي وقت معا.

وكان عند الوعد والتنفيذ.

ورأت فرنسا. ورأت منها باريس وغير باريس.

كانت في خيالها مسرح أحداث الروايـات ومعـاني حب وحدائق هوى، ونسمات قصص لبلزاك ودوديه وفلوبير وغيرهم، وكانت في أحناء خيالها رؤى مجنحة لا يحيط بهـا

تعريف واضح.. كانت تبدو في خفي الوعي منـا أحلامـا، يشملها ضباب، فهي بلا وضوح وتكسوها أستار شفيفة، فهي في نفسها عميقة ولكن بلا معالم موجودة ولكن بـلا تثبيـت، سماوية أحيانا لعوبا أحيانا أخرى، أو أرضية مسـرفة فـي عمق الواقع لما صنعه بها زولا وفلوبير، وستندال والآبـاء الأوائل للواقعية.

ثم رأتها وغاص بها زوجها فـي عميـق حناياهـا، فازداد في عينيها جمالها ولم ترفض نفسها الواقعية فيها؛ فهي واقعية إن أسرفت في الفجور فهي تعنى في الوقـت نفسـه بتجميل هذا الفجور حتى يصبح نوعا من المتع البشرية التي تلتئم مع طبيعة الحياة في باريس، لا ترفضها باريس ولا من يزور باريس حتى إذا خرجت عن باريسها هـذه أصـبحت تهتكا تعافه النفس وترفضه وتحتقر كل ما يلم به.

رأت الغواني التي كن صويحبات زوجهـا، وقـبلن زوجها أمامها فلم تحس لذعة غيرة تِقبلهن.

لم تحس أن اللواتي يقبلنه نسوة عرفهن، وإنما أحست أن ماضيه هو الذي يقبله، وكانت قد بدأت تحب زوجها فهي

تحب أن يرضى عنه ماضيه كما يرضى عنه حاضره، وكما ترجو أن يرضى عنه مستقبله.

والغريب أن فتاة منهن طلبت أن تجلس معهـا فـي جلسة خاصة، كانت قد أحست من لقاء هذه الفتاة بزوجها أنها أقربهن إليه.

وقالت لها الفتاة عجبا:

- أنت زوجته؟
- نعم.
- حقا؟
- وأي عجيب في ذلك؟
- أردت أن أتأكد.
- أنا زوجته.
- أتعرفين كيف يظل زوجك؟
- أعرف كيف أخلص له.
- هل أنت سخيفة إلى هذا الحد؟
- هل الإخلاص سخف؟
- الإخلاص مفروض، لا يحتـاج الرجـل أن يكـافئ زوجته عليه.

- ماذا؟
- طبعا أنت مندهشة أن تسمعي هذا الكلام مني.
- لا.. أبدا.
- بل أنت مندهشة.
- لنفرض.
- اسمعي.. لقد كنت فتاة زوجك في فترة من الفترات.
- ربما أدركت ذلك من لقائك به.

إن ما نصنعه في الكباريه ليس هو الحب، إننا حـين نحب لا نهب هذا الحب إلا لواحد، وكان زوجك يغيب عنـي فترات قد تصل إلى سنة، ومع ذلك لم أكن أهب حبي لأحـد طوال فترة غيابه.

- ولكن..؟!
- إن ما نهبه للزبائن إنما هي أجسامنا فقط.. افهمي ما أقول.. أنا أتكلم عن الحب.
- متى كان هذا؟
- لم تتغلب علي واحدة من زميلاتي.. أنت فقط التـي تغلبت علي.
- أتكرهينني؟

- لم يكن من الممكن أن يتزوجني؛ فهو شـرقي وأنـا أعرف ظروفه.
- أشكرك.
- أتعرفين كي تحافظين عليه؟
- ربما.
- إن لم تكن لك بضاعة إلا الخلاص، فأغلـب الأمـر أنني سأستقبله قبل أن تمر على زواجكمـا بضـعة أشهر.
- الواقع أن هذه هي البضاعة الوحيدة التي أعرفها.
- إذن فسأعلمك.

وعلمتها..

لقد رأت باريس وتعلمت في أهم جامعات الحياة على أعظم أساتذة الحب والمتعة ومعرفة الرجال.

ولم يكن ما رأته من باريس وحـدها هـو حصـيلة علمها. إنما ما رأته من زوجها كان أعظـم، هـذا الرجـل المهيب الذي سمعت عنه في فترة الخطبة أن رجـال المـال العتاة لا يخشون أحدا في البورصة قدر خشيتهم منـه، هـذا الرجل الذي استطاع بهيبته الذكية الخارقة الـذكاء أن جعـل

حمزة البلاشوني وكيل أعماله في الدائرة الزراعية رجلا في غلاية الأمانة. كان هذا الوكيل كما سمعت عنـه يقـول: إن الإنسان حين يسرق أي صاحب مال يعرف أنه قد يفصل من عمله، فإن كان صاحب المال قاسيا غاية فـي القسـوة فقـد يذهب به إلى السجن. أما مع راشد بك فلا يعرف أي مصير ينتظره، فهو خليق أن يصنع به كل ما لا يتوقعه أحد.

راشد هذا ينكشف في ملاهـي بـاريس عـن هـذا الشخص الذي يستطيع في مقدرة فائقة أن يجعل كل لحظـة معه متعة حتى يصـبح الجالسـون والجالسـات جمـيعهم وجميعهن مغمورين في فترة من الحياة مليئة بالحياة، تلفهـم سعادة غامرة تزلزل أعماق أعماقهم، فيزداد غوصـهم فـي لحظاتهم لا يريد أحد منهم أن يفكر فيما كان يصنع بأمسـه، أو فيما قد يصنعه به غده. وراشد هـو روح هـذه الغمـرة الطاغية من الإمتاع، وهو الينبوع، أو هو إن شئت الشـلال الهادر بالإسعاد، وهو في الوقت نفسه يستطيع أن يجعل كـل فرد من الموجودين يعتقد أنه هو لا راشد سبب هذه السـعادة وهذا الإمتاع، كيف استطاع هذا الرجل المهيـب أن يكـون

خبير متعة لا يدانيه في خبرته المتخصصـات مـن فتيـات الملاهي في باريس أو أصحابهن.

وتومض في ذهن خديجة فكرة تعمل فيهـا النظـر وتوشك أن تؤمن بها، إن معرفة الإنسان كيف يكون سـعيدا وكيف يعتصر لحظات السعادة اعتصارا لا يبقي من رحيقها على قطرة، موهبة لا تتأتى إلا لعبقري يعرف كيف يعيش.. ويعرف من مسالك الحياة في جدها ولهوها ما لا يعرفه أبناء الحياة مجتمعين.

والذي لا تعرفه خديجة أن راشدا ترك فـي مصـر مشكلة يضيق بها أشد الضيق تهدد قدرا من ماله، ولكنه مـع ذلك أقنع نفسه بأنها مسألة هينة ميسورة، وأنهـا لا تسـتحق حتى أن يؤخر سفره من أجلها.

لقد اغتاله صديق له في عشرة آلاف جنيه.

والذي لا تعرفه أيضا أن سبب اغتيال صديقه لهـذا المبلغ هو زواجه منها ومعرفته لسيدة من سيدات مصر لهـا أهمية كبرى في المجتمع المصري.. والذي لا تعرفه أيضـا أنه فجع في صديقه وفي ثقته به فجيعة إن لم تزد على فجيعة المال فهي تستوي معها.

ولكن أهذا الحديث يناسب لحظـات المتعـة التـي يعتصرها راشد ويسقيها صرفا غير مشوبة لزوجته الحبيبـة خديجة. سننسى كل هذا الذي يضيق به راشد ونتيح لـه مـا أتاحه لنفسه من شهور صاخبات بالهناء في ربـوع فرنسـا جميعا.

وعرفت خديجة عن زوجها شيئا لم تكن تتوقـع أن يتخلق به، فهو لا يلعب القمار مطلقا. قد يشرب مع الشاربين ولكنه لا يقرب مائدة القمار.

- ولكنه يضارب في البورصة.
- البورصة خبرة وبعد نظر مالي ولا يصـاب فيهـا الإنسان إلا إذا حدثت أشياء لم تكن فـي الحسـبان، ولكن القمار تسليم أموالي كاملة ليد غير أمينـة ولا مخلصة ولا صديقة وهي أيدي الحظ. أنا لا أقبل هذا لكرامتي ولا لثقافتي ولا لعقلي.
- فهل المقامرون جمعيهم أغبياء؟
- بل إن كثيرا منهم أذكياء.
- فمالهم يقامرون؟

- لقد أخطئوا الطريق إلى المتعة فتلمسوها على مائـدة القمار، أما أنا..
- لا تكمل.. لقد رأيت.. نعم إن أحدا لا يعرف طـرق المتعة كما تعرفها أنت.
- ولكن هناك شيئا لم تقله.
- وهو؟
- وهو أنني مع كل هذه المتع ظللت لا أهب نفسي إلا لك.
- وهذا حق أيضا.

٤

لماذا يتوقف العقل عند بعض النـاس وينصـرفون تصرفات حمقاء، مع أنهم من ذوي العقـل الـراجح الـذي استطاع أن يمكن لهم وينزلهم منزلة محترمة عند الناس.

لو أن أحدا سأل زكريا باشا حسام الدين على سـبيل الاستشارة: ما رأيك في زيجة الزوج فيها فات الخمسين منذ ست سنوات، وهو يحث الخطي نحو الستين، والزوجة فيهـا تمشي الهويني إلى العشرين من عمرها لم تكملهـا؟ لكـان جوابه متسما بالعقل والرزانة وبعد النظر. فالمسألة لا يختلف فيها عقلان على شيء من الرجاجة، أو على الأقل لا ينعمان بالغباء الشديد.

ولكن العجيب أن زكريا باشا حسام الدين هو نفسـه تزوج الآنسة سها ممدوح كريمة ممدوح عزت باشـا، أمـا زكريا باشا فهو مستشار في محكمة الاستئناف، عرف بعلمه الواسع بالقانون، بل عرف أيضا بحبه للأدب، وكثيـرا مـا

كانت أحكامه قطعا أدبية يتغنى بها المحـامون، خاصـة إذا صدر الحكم في صالحهم. وهو موسع عليه في الرزق واسع الأفق عميق النظرة؛ ولهذا لم يكن عجيبا أن يصبح وزيـرا، وقد سر بهذا؛ لأنه كان يفكر منذ زمـن أن يتـرك القضـاء الجالس إلى القضاء الواقف. ولعله في ذلك تأثر بالقصة التي تروى عن أحد مشاهير المحامين في فرنسا، وكان ابنه يعمل في القضاة. وفي يوم سأل أحد الصحفيين المحامي:

- لماذا تعمل أنت من القضاء الواقف، بينما يعمل ابنك في القضاء الجالس:
- فأجاب المحامي الذكي:
- لو استطاع ابني الوقوف ما جلس.

وأغلب الأمر أن الأب كان يريد ابنه أن يعمل معـه في المكتب الكبير؛ ليظل محتفظا بمكانة المكتب بعد وفاتـه، والراجح أن الابن كان يفضل العمل فـي القضـاء بطبيعـة مواهبه. أيا ما كان الأمر، فالمؤكد أن زكريا باشا تأثر بهـذه القصة وأراد أن يقف عن كرسي القضاء ليصبح محاميا واثقا من عمله القانوني ومن لغته في وقت معا.

وهكذا جاء تعيينه في الوزارة خير طريق يخرج منه إلى مقاعد المحامين، كان زكريا باشا قد تزوج في أول حياته نعيمة هانم شهاب بنت مجدي باشا. وقد أنجب منها ابنهمـا عدلي.

ولكن زكريا باشا كان يحب النساء، وكان بارعا في الحصول عليهن، والطريق يجمع أصحاب القصد الواحد، فلم يكن عجيبا أن يجمع طريق النساء بين الباشا زكريا والبـك راشد فكانت صداقة قوامها الأول -وقد يكون الأهم- النساء.

ولكن راشدا صاحب مصالح كبيرة، والباشا زكريـا حين ترك الوزارة إلى المحاماة أصبح يتمتع بنفـوذ كبيـر، وأصبحت الأبواب التي لا تفتح لغيره من المحامين تفتح له، ولراشد عين يقظي كعين الصقر تدري أين الخير لها. فقضايا راشد تنتقل إذن من تلقاء نفسها إلى مكتب الباشـا، وتـزداد الصداقة توثقا.

لعلك الآن تعجب أن ذكرت كل شيء عن الباشـا أو أكاد ولم أذكر شيئا عن زوجته الأولى نعيمة هانم شهاب ولا عن زوجه الثانية الآنسة سهير حمدي.

وما كان لي أن أذكر شيئا عن واحـدة منهمـا دون تفصيل لا يقبل الإجمال؛ فنعيمة هانم شـهاب هـي الابنـة الوحيدة للغنى الشهير مجدي باشا شهاب، وهي سيدة علمهـا الغنى أن تأمر فتطاع، وليس زكريا باشا بأقل منها أو أدنـى حسبا، وإنما تعلقه بالنساء، وعلمه بأنه لا شك سيخونها جعله يسمح لها بأن تأمر فتجاب، وأن تبدو وكأنها هي رجل البيت، وكان ذكاء زكريا ومعرفته أنه آخر الأمر يستطيع دائمـا أن يفعل ما يريد داخل البيت أو خارجه يجعله يتـيح لهـا هـذا المظهر المتأمر الصلب تفرح به هي ولا يخسر شيئا.

ولكن شيئا واحدا فات زكريا باشا، وما هذا بعجيـب فالأذكياء أيضا تفوتهم أشياء.

لقد استولت نعيمة هانم على ابنهما عدلي منذ ولادته. فهي وحدها صاحبة الشأن في تربيته، وهـي التـي تدخلـه المدرسة، بل إنها هي التي اختارت له الكلية التي يدخل إليها، والعجيب أن هذه الكلية لم تكن الحقوق التي تخرج فيها أبوه، والتي تخرجت فيه الغالبية العظمى من وجوه البلاد ووزرائها وحكامها.

لقد اختارت له كلية الهندسة، وقد نشأ عدلي فكرة من أمه، وخطرة منها، وإشارة من يدها، فهو لا يعرف أن يختار ولا يريد أن يعرف فالذي لم يعرف الحرية يومـا لا يفكـر فيها، بل لعله إذا منحها تمثلت له شيئا بغيضا لا يطيـق ولا يحتاج إليه. فالاختيار في الحياة شيء صعب تمثلت له شـيئا بغيضا لا يطيقه ولا يحتاج إليه، فالاختيار في الحياة صـعب ومهمة شاقة لا يتعرض لها إلا من لا يتمتع بأم كأم المهندس عدلي التي تختار له كل شيء يتعلق به، وكل طريق ينبغـي له أن يسير فيه.

وحين تخرج عدلي في كلية الهندسة اختـارت لـه نعيمة هانم زوجته، وتزوجها وكان عدلي على غنـاه دمـيم الخلقة، وأصبح بفضل السيدة والدته كريـه الخلـق ضـعيفا تافها، وحين تزوج وانسلخ كيانه عن كيانه أمه فـي السـكن وخلا به وبزوجته بيت تجلى علـى حقيقتـه البشـعة أمـام زوجته، إنه لا يجيد في الحياة إلا أصناف الطعام فما كان له في بيت أبيه بعد أمه إلا الطاهي يلازمه، فتعلم عنه أصـول الطهي حتى أجادها، وأحس بالرضاء عن نفسه واطمأن أنـه صاحب موهبة، وسبحان رب العرش في علياء سمائه. يهب

لكل عبدٍ من عباده -مهما يكون تافها- شيئًا تطمئن إليه نفسه أنه يملك ما لا يملكه الآخرون.

وربما كانت هذه الموهبة بالنسبة لزوجته في الأيـام الأولى من زواجهما مثار ضحك ومزاح. ولكن ويل للزوجة وللزوج معا إذا تبينا أن الضحك والمزاح إنما هما جد كـل الجد. وأن عبقرية المهندس ليست في شيء إلا فـي طهـو أصناف الطعام.

ضاقت الزوجة راوية بزوجها أشد الضيق، ولما كان لا بد للضيق أن يتمثل في عمل، فما هو إلا شهر أو بعـض شهر حتى كان عدلي مطية وزوجه راكبتها، يبدو الأمر من النظرة السطحية أن مثله في ذلك مثل أبيه، ولكن وهلة مـن إنعام النظر سرعان ما تعود بها العين الخبيرة. إن هدوء أبيه عن ذكاء وعن محاولة لإخفاء ما يصنعه خارج البيت. أمـا هدوء الابن فعن غباء، ولأنه لا يعرف إلا أن يكـون هادئـا وحلت الزوجة محل الأم، ولم يقم بينهما أي خلاف. فراويـة ذكية تعر تبدو أمام حماتها دائما طيعة ذلولا لا تخالف لهـا أمرا أو ترد لها كلمة، فملكت بذكائها الأم والابن جميعا.

وهكذا وقع زكريا باشا في خطأ لم ينجه منه ذكـاؤه المتوقد. وبدلا من أن يكون ابنه جديرا بـأن يحمـل اسـمه أصبح هزوة لكل هازئ، وأغلب الأمر أن زكريا باشـا أراد لابنه أن يلهي زوجته عنه فيستطيع هو أن ينصـرف إلـى نسائه ما شاء له الانصراف. فإن زوجته تعرف عنـه ميلـه للنساء، بل قد حدث بينهما حدث تدافعت أصداؤه في مصـر جميعا يوم أن دعت زوجته سيدات كثيرات في ليلة شاع فيها الأنس والسرور بمناسبة عودتها من الأراضي الحجازية بعد أن حجت بيت الله وزارت قبر نبيه.

وكان الباشا يوم ذاك في البيت، ولكنه فـي حجرتـه بعيدا عن مجتمع النسوة.

لم تكن نعيمة هانم تعرف أن صديقتها صالحة هـي رفيقة الباشا في هذه الأيام، فلم يكن عجيبا أن تدعوها، وكـم كانت المفاجأة صعبة حين تفقدت صالحة في أثناء الحفل فلم تجده، فإذا خادمته مبروكة تشير لها بأصـبعها إلـى أعلـى وتصعد نعيمة هانم إلى حجرة الباشا فنجدها خاليـة، فتكمـل صعودها إلى السطح لتجد صالحة في أحضان زوجهـا، وإذا بها تصرخ صراخا يتعالى على صوت المغنية في الطـابق

الأدنى، وإذا بها تخلع حذاءها وتنهال به على معالي الباشـا وكان يومذاك وزيرا جديرا. وتصبح القصة حـديث مصـر جميعا، وتطلق صالحة من زوجها، وتنقطع صلة الباشا بها.

ولكن الباشا لا يستطيع العيش مـن غيـر أخـرى، ويتعرف في هذه الأيام على المستشار ممدوح بـك عـزت، وهو رجل اقترب من المعاش وذهب إلـى معـالي الـوزير يرجوه أن يسعى له أن ينال رتبة الباشوية وهو في طريقـه إلى مقاهي المعاش.

وممدوح بك عزت رجل تزوج، وهو كبيـر السـن، سيدة مات عنه زوجها هي السيدة نبويـة البـاجوري، وقـد أنجبت لزوجها فتاة كان عمرها يوم ذهب والدها إلى وزيـر العدل يدور حول العشرين.

في غمرة التقرب الذي يسعى به ممدوح بـك إلـى معالي الوزير دعاه إلى الغداء في منزله. وهناك رأى الباشا لأول مرة بيت ممدوح بك، ورأى أيضا ابنة ممدوح بك. أما البيت فكسير متواضع يدل على أن سعادة المستشار شـريف وفقير، وأما البنت فتدل على أن سـعادة المستشـار أحسـن اختيار زوجته، وأن الله جعل الابنة تشبه الأجمل في والديها.

راقت سهير في عين الباشا، ولكن هـذه فتـاة فـي حضن أبيها فلا سبيل إليها أو على الأقل الطريق الذي تعود أن يسلكه لا يصلح معها.. مع هذه الفتاة ليس هناك إلا طريق واحد.

- سعادة الباشا ابنتك سهير غاية في الجمال.
- لا تنس يا معالي الباشا أن صدور الرتبة منك يوشك أن يكون براءة للباشوية، فأنت الـوزير المخـتص باقتراح الرتب للمستشارين.
- سعادة الباشا أنا أعرف اختصاصاتي كل المعرفة.
- إذن.
- أظن جلالة الملك لا يرضى أن يكون أبـو زوجتـي بك.
- ماذا.. ماذا قلت معاليك؟
- أنا يا أخي أخطب ابنتك لنفسي.
- هذا شرف يا معالي الباشا.
- ولي شرط.
- أنا تحت أمر معاليك.

- أن يظل الزواج سرا حتى أجـد الفرصـة مناسـبة لإعلانه.

وتم الزواج ونال ممدوح باشا رتبة الباشوية.

لم يكن عجيبا أن يقبل ممدوح بك أو باشـا خطبـة ابنته، فقد كانت المناصب والرتب ذات شأن أسطوري فـي ذلك الزمان، ولكن العجيب أن شخصا في ذكاء زكريا باشـا يخطب فتاة تصغر ابنه بعشر سنوات، من المؤكد أنه ما كان ينصح أي إنسان ينتصحه أن يفعل ما فعل، ولكـن الإنسـان دائما يظن أنه شيء آخر غير الناس، وأن ما لا يجدر بغيره يجدر به. فزكريا مثلا كان يظن أن شبابه دائم، وأن الجاذبية التي يتمتع بها تستطيع أن تعوض سهير عن فتوة العشـرين، وأن اللقب والمكانة أهم بكثير من تقارب السن.

ولم يكن الأب يسأل ابنته في شأن زواجها؛ ولهذا لم تحاول سهير أن تمتنع، فما دام أبوها قد اختار لها هذا فـلا راد لإرادته، ولكنها في شبابها المتفتح كانت تعرف الطريـق الذي فرشه لها أبوها برتبة الباشوية التي نالها.

وظل الزواج سرا.

شخص واحد كان الباشا يصحبه إلى بيـت زوجتـه الجديدة هو راشد بك برهان. فقد عرف فيه الباشـا قدرتـه الفائقة على سكب حياة كاملة في لحظات متعة، وقـد كانـت السرية التي تحيط بالزواج تجعل الصلة بينه وبـين زوجتـه يحيط بها جو المغامرات الذي كان يحيط بصلاته مع رفيقاته السابقات، وقد كان الزواج يحصن العلاقة إذا هي افتضـحت من أن تلوك الألسنة اسمه كما لاكتها في حادثة الحذاء، وفي أحداث أخرى مشابهة.

أعجب راشد بزوجة الباشا وأعجبت بـه. رأت فيـه الشخص الذي تستطيع معه أن تمـارس شـبابها، وتحـس بجمالها الآسر مقدرا عند خبير نساء. وهو وإن كان يكبرهـا في السن إلا أن الفارق أقل من ذلك الفارق الذي يفصلها عن زوجها.

أحست سهير في عيني راشد الإعجاب، وكانت تعلم أنه لن يقدم على مغازلتها على مرأى من زوجها، فـالزوج لماح الذكاء، وراشد يعرف مقدار لماحيته وذكائه. إذن فلتقدم هي.

حين انتهت السهرة وحان الموعد لراشـد أن يتـرك الزوجين، قام واستأذن، وصافح الباشا وصافح سـهير، وإذا بشيء أدرك أنه ورقة تتكور في يده فيطبق عليها يده.

ويقرأ راشد على ضوء سيارته الداخلي.

"تعال غدا في الساعة السابعة. الباشا لن يأتي غدا".

ويضع الورق في جيبه ولا يتولاه عجب كثير؛ فقـد كان يعلم أنه إذا لم يقم هو بدور العشيق لهذه الزوجة الشابة، فسيقوم غيره، ولا بأس به أن يخون صديقه الذي ائتمنه على حريمه. فهو خير ألف مرة من غيره. فقد يكون هذا الغيـر محبا للظهور وقد يكون شابا فيه رعونة الشـباب وزهـوه، فيفتضح من أمر الباشا ما ينبغي أن يكون سرا.

فهو إذن يقوم بدور العشيق لزوجة صـديقه حمايـة لعرض هذا الصديق أن تتناوشه ألسنة حداد، وفـي ميـدان السياسة يباح كل شيء.

ذهب إلى بيته في هذه الليلة، فاستقبله بدوي خادمـه الجديد بعد أن أحال خادمه السابق على المعاش، فقد كان عم محمدين كما كان يسميه قد بلغ من الكبر عتيا، فطلب إليه أن يظل في البيت يشرف على المأكل والمشرب ويترأس الخدم

دون أن يقوم بأي عمل، وطلب إليه أيضا أن يستقدم خادما له جديدا يقوم على خاصة شأنه ويتولى شأن ملابسـه، فكـان بدوي.

خلع راشد حلته وألبسه بدوي الجلبـاب، واسـتلقى راشد على سريره لقد بدأت مغامرة جديدة. لم يكن إلى ذلـك الحين قد رأى خديجة، بل إنه لم يرها إلا بعد ذلك بحـوالي عامين استمرت فيهما علاقته بسهير، وطبعا لم يعرف الباشا شيئا، فكان كثيرا ما يقضي مع الزوجة وزوجها السهرات.

***

اغتالت البورصة فهمي عبد الحميد صـديق راشـد اللصيق وجاره في الأرض الزراعية، وشح المال في يـده، وأوشك أن يبيع عزبته المجاورة لأرض راشـد الواسـعة، فاستدعاه راشد.

- كم تحتاج؟
- لماذا لا تشتري أنت العزبة؟
- هذا الكلام فارغ.
- المبلغ كبير.
- ولكن البورصة لا تستمر على حال واحدة.

- وهي أيضا بلا قلب.
- إذا كانت خانتك اليوم وأعطت غيرك، فليس بعيدا أن تخون غيرك في غد وتعطيك.
- إذا أعطتني أشتري أرضا أخرى أو أسـترد منـك الأرض.
- أنا لن أشتري.
- أبحث عن مشترٍ.
- وأنت لن تبيع.
- غير معقول أن تسلفني مبلغا كبيرا كهذا.
- إذا لم أحتمل أضمنك في البنك.
- أريد عشرة آلاف جنيه.
- عندي.
- أبيع العزبة أحسن.
- العزبة تساوي أكثر من هذا.. خذ.

وأعطاه شيكا بالمبلغ، وكتب فهمي كمبيالة مسـتحقة الدفع عند الطلب وضعها راشد في حافظة نقوده.

***

في سهرة عند الباشا أو عند سهير أيهما شئت قـال راشد:

- معالي الباشا عندي خبر لا بد أن أقوله.
- وهل تحتاج إلى مقدمات؟
- ولعل سهير هانم يهمها أن تعرفه أيضا.
- خيرا.
- ربما أصبح من العسير علي أن أكثـر مـن زيـارة معاليك بعد ذلك.
- إذن فالخبر هام حقيقة.
- أنا أيضا سأتزوج.
- واربد وجه سهير هنيهة، ولكن سرعان ما استجمعت قوة الأنثى.
- ألف مبروك.
- وقال الباشا:
- نعرفها.
- يا معالي الباشا لو كنت تعرفها لما تزوجتها أنا أبدا.
- وقهقه الباشا بصوت مرتفع، وتبسمت سهير، وقـال راشد مستطردا:

- تعرف أباها، وإلى هنا والمسألة سليمة والحمد الله.
- من؟
- ابنة عثمان باشا فكري .
- لقد اخترت.
- حقا يا باشا؟
- سمعت عنها كل خير.
- الحمد الله.. معاليك متأكد أنه سمع فقط.
- نعم.. نعم.. لا تخف.. وماذا تريدنا أن نقدم له هدية؟ لهذا الزواج؟
- معاليك خير من يختار.
- إنني أعد لك مفاجأة منذ بضعة أشهر أظن أنها تصلح هدية لزواجك.
- هل لي أن أسأل؟
- الآن أستطيع أن أقول لك.
- عظيم.
- أنت تعرف صلتي برئيس الوزراء.
- نعم. ولو أنك رفضت أن تشترك في الوزارة.

- الوزارة بالنسبة لي خسارة كبيرة، فهي تجعلني أترك الشركات التي أعمل بها.
- ربما كنت على حق.
- اعتذرت عن عدم قبول الوزارة، ولكن تستطيع أن تعتبرني مشتركا فيها؛ فرئيس الوزراء يستشيرني دائما، وقد طلبت أجرا لاستشاراتي هذه.
- طبعا استشارة زكريا باشا لا بد أن تكون مكافأتها كبيرة..
- لقد طلبت لك الباشوية.
- حقا.
- وأظن أن اسمك سيظهر في إنعامات العيد..

لم يبق إلا أشهر قلائل، وتصبح راشد باشا برهان.

- اسمح لي أن أقبلك يا معالي الباشا.

***

حين ذهبت إلى بيته راح خادمه الجديد إدريس يخلع عنه ملابسه، فقد غضب عم محمدين على بدوي، واتهمه بأن يده طويلة وحرامي فطرده، وجاء بإدريس بدلا منه، ولم يكن

راشد بك يرد لعم محمدين أمرا يأمره في البيت؛ فقـد كبـر على يديه، وهو يعتبر مربيا له..

لاحظ إدريس أن راشد بك سعيد حالم وإن كان لـم ينطق بحرف واحد. وبينما هو يخلع عنه بنطلونـه إذا بعـم محمدين:

- سعادة البيك.
- وقال راشد في نفسه: بعد بضعة أشهر ستقول سعادة الباشا يا عم محمدين.
- نعم يا عم محمدين.
- فهمي بك تحت.
- الآن!
- لما رأى دهشتي قال: إنه يريدك في شيء مهم.
- اللهم اجعله خيرا.. ألبسني يا بدوي. آسف أقصد يـا إدريس، وحين لبس قال لمحمدين:
- هات دفتر الشيكات من درج الدولاب يا عم محمدين.
- ونزل راشد إلى حجرة مكتبه.
- خيرا يا فهمي.
- أين الكمبيالة؟

- يا رجل.. أمن أجل هذا تأتي في هذه الساعة؟
- إن الحديث الذي أريدك فيه لا تصـلح لـه إلا هـذه الساعة؟
- إني سأرده نعم، ولكن ليس بالطريقة العادية.
- ماذا؟
- معي ورقة تحتاج إليها.
- وهل تريد أن تبيعها لي؟
- نحن نعمل في البورصة. وأنت قلت إن البورصة لا قلب لها.
- ولكن نحن لنا قلوب.
- نحن أبناء البورصة.
- بل نحن أبناء الإنسان.
- المهم ألا تريد أن ترى الورقة؟
- لا بأس.
- وأخرج فهمي الورقة وفتحهـا لحظـة، ثـم أقفلهـا وأعادتها حيث كانت.
- ودارت الدنيا براشد. واستمر فهمي:

- إنك على وشك الزواج، وفضيحة كهذه تقضي علـى زواجك.
- هل هذا معقول؟
- وقد عرفت أنا بتحرياتي أن الباشـا تـزوج سـهير ممدوح، وطبعا الورقة منها.
- أيمكن هذا؟
- تصور لو وقعت الورقة في يد ابنه عدلي، لقد جـن حين أخبرته أن أباه تزوج. وحاول أن يخبـر أمـه ولكنها في مرض الموت ولا تعي شيئا.
- أهذا فهمي الذي يكلمني؟
- تصور أن عدلي ينوي رفع دعوى سفه علـى أبيـه فكر في أثر هذه الورقة في القضية.
- فهمي.. المبلغ لا يهمني وسأعطيك الكمبيالة ولكـن كيف تصنع أنت هذا ؟
- ألم أقل لك إن البورصة لا قلب لها.
- ولكن أنا أيضا ابن البورصة وأنا.. أنا

- أعرف ما تريد أن تذكره من شهامتك ولكن النـاس معادن. أنت شهم وأنا نذل. أظن أن هذا يوفر عليك كثيرا من الكلام.
- هات الورقة.
- هات الكمبيالة.
- لك حق.. فأنت تظن الناس جميعا مثلك نتبادلها فـي وقت واحد. وتمت المبادلة.
- هل اطمأننت الآن؟
- كنت أستطيع أن أطلب ضعفي هذا المبلـغ وكنـت ستدفع.
- الآن اعلم أنك أنت الذي ستدفع.. وستدفع أضعاف ما أخذت.
- أتظن ذلك؟
- سترى.

٥

وهكذا سافر راشد إلى أوربا مع عروسه في ذهنـه كثير يشغله. فقد ترك زوجة زكريا باشا نعيمة هانم بين موت وحياة، وابنه عدلي كاد يجن من خبر زواج أبيه، وهو لا يجد من أمه أذنا أو فهما ليبثها هذا الخبر فتقضي على هذا الزواج قضاء مبرما. وهو إن كان قد تجاوز الثلاثين إلا أنـه غبـي قاصر العقل هزيل التصرف، وليس ببعيد أن يرفع دعـوى السفه على أبيه؛ فجهله يحول بينه وبين معرفة هـزل هـذه القضية وعدم جديتها. وكل ما يعرفه عن أبيه أنه زوج أمـه الذي يطيعها في كل شيء، ولو كان على شيء مهما يمكـن هينا من الذكاء لعرف أن أباه لا يطيـع أمـه إلا فـي تافـه الأمور. فلو قد فكرت أن تتعرض لآرائه الفقهية أو السياسية لكان له معها شأن آخر.

وليس راشد بالذي يفكر هذا التفكير جميعه في شـأن زكريا لمجرد الاهتمام بأمره، وإنما خشي أن يشغله شأن ابنه هذا عن السعي إلى الباشاوية التي وعده بها.

وهو يخشى أيضا أن تؤلبه سهير عليه، فقـد قطـع علاقته بها تماما منذ ذلك اليوم الذي أعلنها فيه أنه سيتزوج. وللسيدات إلى هذه الأمورمداخل لا يلج منها سوى ذكائهن.

ولكنه مع كل ذلك كان يفضل السفر؛ فهو لا يجب أن يظهر أحدا على اهتمامه برتبة الباشوية، ثم لا تـأتي، وهـو يفضل أن يعرفها الناس من المرسوم لا منه. وإن له أصدقاء خلصا وهو يخشى – وإن كان يعرف نفسه – أن تفلت منـه كلمة تنبئ عما يدور بنفسه من آمال.

وقد حرص راشد ألا يخبر زوجتـه بمـا ينتظـر. فالرتبة عند السيدات لها مكانة خاصة، وهو يخشى ألا تـأتي فتهتز مكانته في نفسها.

لم يستطع شيء من هذا جميعه أن يحول بينه وبـين أن يعيش الساعة في فرنسا ساعات مكثفة من البهجة يشيعها من نفسه إلى قلب زوجته وإلى قلب كل من يشـاركهما فـي لياليهما أو في بياض نهارهما.

فهو من أولئك القلة التي تعرف لكل لحظة حقها، فلا يعدو التفكير على المتعة ولا تعدو المتعة على العمل.

وهو أيضا كان يعلم أن ليس في القاهرة شيء يستطيع أن يفعله فالانتظار وحده ليس عملا.

أما عن فهمي فإنه لم يبت ليلته التي زاره فيها ليعرض سفالته إلا وقد أعد له عدته. وعرف تفاصيل ما سيفعله بشأنه، ولم يكن الموعد الذي حدده قد جاء بعد.

حين عاد راشد إلى القاهرة في أوائل سبتمبر كان الباشا قد أعلن زواجه من سهير، بعد أن ماتت نعيمة، وأصبح الباشا يخرج مع زوجته في كل مكان.

وكان عدلي قد رفع دعوى السفه على أبيه، فجعل من نفسه أضحوكة بين الناس. فإن كان لا بد من دعوى ترفع، فقد كان الأجدر أن يرفعها الأب العالم الذكي على ابنه الغبي الجاهل.

وكان زكريا باشا كبيرا كشأنه، فاكتفى بإرسال أصغر محام في مكتبه، وهو يعلم أن مهمة المحامي غاية في السهولة واليسر. ولم يكن عجيبا ألا يفكر زكريا باشا في حرمان ابنه من الميراث وما كان أيسر من هذا بالنسبة إليه،

ولكن لعله بروح القاضي العادل، والفقيه القانوني، قـد أدرك أنه هو الذي أهمل شأن ابنه، وجعل منه هذا السخيف الـذي أصبحه، بما هيأت له أمه من مجالس فارغـة مـع نسـوة جاهلات، وما هيأه له طاهي المنزل من ثقافة مطبخية.

ولم يشأ زكريا أن يعاقب ابنه على خطأ ارتكبه هـو نحوه، ويعتبر نفسه مسئولا عنه.

وبقدر ما كانت أحاديث القاهرة تسخر مـن سـخافة عدلي بقدر ما كان تكبر موقف أبيه وتعاليه عـن الصـغار، وعن أن يجعل نفسه في كفة ميزان مع ابنه السخيف.

كان العيد قد اقترب، وذهب راشد إلى القرية، ومعه زوجته، وراح يوزع على الفلاحين الملابس والنقود مضاعفة هذا العام، مدعيا أنها من أجل زوجته، فانطلقت الألسنة تدعو لها وله بكل هناء، وإن كان هو في خبيء نفسه يدبر لأمـر ويعد له بهذه المنح عدته.

ظهرت أسماء الذي أنعم علـيهم برتبـة الباشـوية وانفجر الخبر في البلدة، حيث أحب راشد أن يكـون؛ ففـي الريف تصبح الأفراح والأحزان أكثر جلاء ووضـوحا مـن المدينة.

في الريف ينطلق الفرح فيصبح في كل بيت. توشك تراه في الشمس وفي القمر وفي الزرع وعلى وجوه الأنعام، مع زغاريد النساء ورقص الرجال وقرع الطبـول وهتـاف المزمار.

وأعاد راشد المنح مرة أخرى بمناسـبة الباشـوية، وركب سيارته مع زوجته ليقيد اسمه في دفتر التشريفات، ثم ليذهب بعد ذلك فورا إلى زكريا باشا ليشـعره أنـه يعـرف الفضل لأهله، وأخبره زكريا باشا بالأسماء التي ينبغـي أن يمر بها ليقدم الشكر؛ مثل رئيس الوزراء ورئـيس الـديوان وكبير الياوران وغيرهم.

لم يمكث الباشا راشد في القاهرة أكثر من يومين، ثم أخبر خديجة أن لديه عملا في القرية، وقد يضطر أن يغيـب بها يومين. ولم تكن الزوجات إلى ذلك الحين يناقشن رغبات أزواجهن. وخديجة لها من ثقافتها ما يجعلها تعـرف تمامـا متى يجمل بها أن تسأل، ومتى ينبغي لها أن تتـدخل؛ فهـي تدرك أن أعمال زوجها ليست مجال أسئلة لهـا أو تـدخل.. وهكذا أخذ حضرة صاحب السعادة راشد برهان باشا طريقه إلى قريته.

٦

في زيارته الأولى سأل.

- متى نجمع القطن؟
- بعد بضعة أيام.
- والعزب التي تجاورنا.
- بعدنا.
- كلها؟
- كلها: نحن أول من زرعنا القطن في الجهة.
- عظيم.. سأحضر معكم الجمع هذا العام.
- نزداد شرفا يا سعادة الباشا.

في زيارته الثانية ركب راشد حصانه، وراح يمـر بأرضه مع حمزة البلاشوني وكيل زراعته وبدا وكأن راشدا أخطأ الطريق، فمر على حدود الأراضي المجـاورة وسـأل حمزة:

- كم فدان قطن هذه؟
- ثلاثمائة فدان.
- ولم يعقب.
- وحين عاد إلى البيت قال لحمزة:
- أريد متولي الفراش.
- سعادتك تقصد متولي صاحب الفراشة.
- نعم.
- سعادتك تنوي أن تقيم لنا ليلة بمناسبة الباشوية؟
- ستكون ليلة وأنت بطلها.
- يا ليت يا سعادة الباشا لو كنت أعرف أغني لغنيـت للصبح.
- ستغني يا حمزة.. ستغني للصبح، ولكـن بأصـوات أخرى.
- سعادتك تتوقع أن أفهم؟
- مؤقتا المطلوب ألا تفهم.
- وسأل متولي صاحب الفراشة.
- كم كلوب عندك؟
- أمرك يا سعادة الباشا.

- أريد ثلاثين.
- أمرك سعادة الباشا.
- خذ.. اشتر ما ينقصك.. وحين تنتهي الليلة خذها لك.
- ربنا يطيل عمر سعادة الباشا.
- متى تكون مستعدا؟
- عندما تأمر
- الليلة
- أمرك
- وقال لحمزة:
- أريد كل نظار العزب.
- أمر سعادة الباشا
- بعد ساعة
- أمرك
- ومعهم الخولية
- أمر سعادة الباشا
- قال لهم راشد:
- أريد أطفالا وشبابا ونساء في سن جمع القطن.
- وقال حمزة:

- كم تريد؟
- لو كنت أريد عددا ضئيلا ما جمعـت كـل هـؤلاء الرجال أريد كل من تستطيعون أن تجمعوه. وأريـد عربات نقل وجمـالا وحميـرا أيضـا بقـدر مـا تستطيعون.
- ونظر الرجال بعضهم لبعض، وقال أحدهم:
- القطن عندنا لا يستحق الجمع الآن.
- لا عليك يا حاج جودة. ستعرف كل شيء في حينه.. أنا أعرف أن أحدا لم يفتح في الجمع حتى الآن.. كم نفرا تستطيع أن تجيئني به.
- أمرك. أستطيع أن أحضر أكثر من مائتين؛ فالجميع الآن لا يصنعون شيئا.
- وهذا بالضبط ما قصدت إليه.
- وهو كذلك.
- وراح كل ناظر وكل خولي يدلي بعدد الأنفار الـذين يستطيع جمعهم واكتمل العدد. ألفـا ومـائتين. أدرك الباشا أنهم لن يتجاوزا الألف وهذا ما أراد.
- متى تستطيعون أن تحضروهم؟

- إن أردت الآن.
- أنا فعلا أريدهم الآن.. إن انتظرنا إلى الغد فشل كل الترتيب الذي أصنعه.
- أمرك.
- متى تحضرون؟
- نظر الحاج جودة حوله لحظة ثم قال:
- صفار شمس يا سعادة الباشا.

وأمنت الأصوات على الموعد.

قبل أن تغرب الشمس كانت الأرض الواقعة أمام سراي راشد باشا برهان تغص بالناس.. منهم من جاء تلبية للطلب، ومنهم من جاء ليعرف السر وراء هذه الدعوة الغريبة للناس والأنعام جميعا. وفي نفس الوقت كان الباشا مجتمعا مع حمزة ونظار العزب في حجرة مقفلة لم يسمح لغيرهم بدخولها. وسأل الباشا حمزة:

- هل خفر العزب معكم؟
- طبعا
- هل معهم أسلحتهم؟
- طبعا

- كم بندقية عندنا؟
- كان عندنا عشر بنـادق؛ اثنتـان منهمـا الآن فـي الإصلاح.. عندنا الآن ثمان.
- لا بأس. ما سأقوله الآن سينفذ دون أن يعرف أحـد في الخارج شيئا إلا وأنتم في المكان الذي أحدده.
- أمرك.
- ستأخذون الأنفار جميعا إلى أرض فهمي عبد الحميد.
- ونظر الرجال بعضهم إلى بعض وأكمل الباشا:
- في ساعة زمن سينزل الجميع الغيط، مع كل جماعة كلوب، وحول الأرض الخفراء مع بنادقهم.. يهددون فقط. لا أريد عنفا، وقد تكتمت الخبـر، وأعتقـد أن أحدا لن يأتي إليكم وفهمي عبد الحميد غير موجود. وحين يأتي ستكونون قد جمعتم القطن. الأكياس يـا حمزة التي أتينا بها لقطننا أنا اشتريتها لهذه العملية.
- أمرك يا سعادة الباشا.
- تخرجون وتأخذون الأنفار دون أن تقولوا إلى أيـن حتى يجدوا أنفسهم أمام القطن يا حمزة. هـذا أجـر مضاعف للأنفار، وكافئ كل من يبدي همة.

الناس في القرى لا يسمحون لفرصة كهذه أن تمـر دون أن يعرفوا أعماق الأسرار التي تقـف وراءهـا، إنهـم واثقون أن هذا المشهد الذي يرون سيصبح تاريخًا يتحـاكون به، ويجعلون منه على الأيام بصمة كعام الفيل الـذي خلـده التاريخ. فكل حدث ضخم في القرية عام فيل. وتراهم يقولون في سليقة مواتية: "وكان هذا قبل حكاية الباشا وفهمـي عبـد الحميد بأسبوع أو بعدها بشهر". وهكذا ستصبح علامة زمنية يرويها أب إلى ابنه وابن إلى حفيده.

فهيهات هيهات أن يتركوا الجموع تذهب ولا يقصون أثرها ويتبعونها إلى حيث تذهب، وإن كانـت جهـنم هـي المقصد والمتجه.

وهكذا تجمع مئات آخرون حول الجمعية الذين أنافوا على الألف، وساروا يتبعهم كل من رآهم حتـى إذا بلغـوا أرض فهمي وقف حمزة وألقى أوامـره فـي حسـم وفـي اختصار، وتفرقت الأضواء، وأحاط الخفراء بالأرض وتسلم كل نفر خطا وبدأ جمع القطن. ووقف المتفرجـون لحظـات وقد عقدت الدهشة ألسنتهم، ولكنهم ما لبثوا أن تبينوا مقـدار الجرأة والابتكار في هذا الذي يحدث، وهـم مطمئنـون أن

سندهم الباشا. فما لهم لا يشاركون فيما أخـذ فيـه الجميـع وتصبح روايتهم بعد ذلك مؤيدة بأنهم جمعوا مع مـن جمـع وتمكنوا أن يجمعوا ثلاثمائة فدان بدءوا فيها بعد أذان المغرب وانتهوا منها وصلاة العشاء مازالت حاضرة.

حتى السرقة في القرى توقت بأوقات الصلاة. وهكذا نستطيع أن نقول إنه حين وجبت صلاة الفجـر كـان قطـن فهمي عبد الحميد في مخازن راشد باشا برهـان مسـتقرا، وكأنه فيها من أيام طويلة.

***

أصبحت هذه القصة أحدوثة المديرية كلها يتناقلونهـا بشيء كثير من الدهشة. فراشد حسن السمعة لم يمد يده فـي حياته إلى ما ليس له، وفهمي عبد الحميد ليس فوق مسـتوى الشبهات، وهكذا سرعان ما ابتدعت الإشاعات قصـة عـن السبب وصدقها الناس.

فالناس لا يحكمون على أحد من حادثة واحدة، وإنما هم ينظرون في ماضيه جميعا، ويقارنون ويقدمون الحيثيات ثم يصدرون الحكم.

لقد أكل فهمي عبد الحميد على راشد مبلغا من المال وأبى أن يرده إليه، فلم يجد راشد أمامه سبيلا إلى هذا. فهو لا يحب أن يستلب أحد أمواله ما دام هو لا يحـب أن يسـتلب أموال أحد.

وهكذا أصبح فهمي عبد الحميد المجني عليه ظالما لا مظلوما ولا إشفاق عليه. فهو الذي صنع اسمه هذا، وسيرته تلك بين الناس. فليس عجيبا أن يكون هذا هو حكـم النـاس عليه، وأن من يقدم على ما أقدم عليه نحو شـخص أكرمـه وأقال عثرته وحفظ عليه ماله وأرضه، ليس غريبا عليـه أن يكون اسمه بين الناس غير كريم؛ فهذا الاسم يتكـون عنـد الناس من أشياء صغيرة غاية في الصغر. يأتيها ذو الـنفس اللئيمة من غير قصد ويستقبلها الناس في كثير من الأحيـان بنوع من النفور قد لا يعرفون سببه. وليس غريبا أن تسـمع من الناس عن فلان منهم أنهم لا يرتـاحون إليـه، وربمـا عجزوا عن إبداء الأسباب إن سألتهم أسـبابا. فهمـي عبـد الحميد هو هذا الفلان من الناس عند الناس.

عرف أهل المديرية مما تواتر عن هذه الحادثـة أن راشدا في القرية، فتوافدوا إليه مـن كـل الـبلاد يهنئونـه

بالباشوية، ويسخرون من فهمي عبد الحميد، وربما حاول أصدقاؤه المقربون أن يعرفوا منه ما دعاه إلى ما فعل، ولكنه كان يقول في حسم:

- وهو يعرف وهذا يكفي.
- وقصد إلى بيت راشد باشا مدير المديرية والمأمور والحكمدار. وقال الباشا المدير:
- جاءتنا شكوى من فهمي عبد الحميد.
- وقال راشد في نوع من التجاهل:
- خيرا.
- لا تحاول معنا تجاهلا.. فقد حققنا الشكوى.
- مم يشكو؟
- المهم أن كل رجاله رفضوا أن يشهدوا ضد أي أحد من رجالك، فأشجع من فيهم الذي قال: ناس لا نعرفهم.. وأغلبهم قال ليسوا من الناحية، ولا من الجهة.
- مازلت لا أعرف عم تتحدث يا سعادة الباشا.
- والله وأنا الآخر لا أعرف عم أتحدث.. اطلب لنا القهوة يا سعادة الباشا.

- إنها عادة تأتي دون أن أطلبها يـا سـعادة الباشـا. شرفت.. شرفت يا سعادة الحكمدار وأنت سعادة البك المأمور.
- انتهزنا الفرصة لنهنئ سعادتك بالباشاوية.
- أكرمك الله يا سعادة الحكمدار.. إن شاء الله نهنئـك بها قريبا، والتفت إلى الباشا المدير:
- سعادة الباشا يحب النارجيلة.
- وقد أحضرتها معي في السيارة.. أتأمر بإحضارها.
- لا يا سعادة الباشا. في هذه المـرة ستشـرب فـي نارجيلة أخرى، ومعها دخـان اسـتقدمته لسـعادتك خصيصا من تركيا.
- وصفق راشد باشا وأصدر أوامره، ومـا لبثـت أن جاءت شيشة ذات مبسم من المرجان وقد أحكم عليها دخان واضح الفخامة وما هي إلا أن جـذب منهـا الباشا المدير جذبة فإذا هو يقول.
- سعادة الباشا ليس في مصر رجل مثلك يعرف كيف يحيى الناس في أناقة وترفع.
- ويضحك الجميع.

لقد كانت ملاحظة المدير غاية في الصـدق.. فمـن يستطيع أن يقول إن مديرا عظيما يرشى بنارجيلة، إنما هـي هدية من ناحية الثمن لا تساوي شيئا، ثم هو يقدمها إليه على الملأ. والرشاوي لا تقدم على الملأ.. إنما هي هديـة بـين صديقين ولا تحمل أي تأويل آخر.. ثم هي هدية تحمل فـي طواياها أن مقدمها يهتم بمن سيقدمها إليه ويبحث عما يسره من الهدايا ويقدمها إليه.

ذكي سعادة الباشا الجديد.. ذكي لا شك في ذلك.

٧

شهيرة سيدة عجيبة.. إنها ابنة عم خديجـة وأبوهـا وجدي باشا عزت. وقد تظن أني أخلط الأنساب فجعلت أخـا عثمان باشا فكري اسمه وجدي باشا عزت، ولو أنك سـألت واحدا من أبناء هذا الجيل لعلمت أن المدارس في ذلك العهد العهيد من الزمن كانت تسمي تلاميذها بأسماء تركيـة غيـر تلك التي يردون بها إلى المدرسة، ولم يكن هناك شـهادات ميلاد في ذلك الحين.

فوجدي باشا عزت –إذًا- هو أخو عثمان باشا فكري كما شاءت المدرسة أن تسميه. وإن كان عثمان باشا فكـري قد نال الباشوية عن طريق غنى سابق تبدد، فأصبح أقـرب إلى الفقر، فإن وجدي باشا عزت نال الباشوية عـن طريـق السياسة، فقد كان عضوا بالتجمعات البرلمانية التـي كانـت

تسمى المجلس التشريعي أو مجلس شورى القـوانين. ولـم تمهله الحياة أن يرى مجلسي البرلمان اللذين نبتا عن دستور عام ١٩٢٣ وكانا يسميان: مجلس النواب ومجلس الشيوخ.

ولكن وجدي باشا ترك مع ذلك سيرة طيبة، وتـرك أيضا بقية من مال تجعل ابنته شهيرة تنسـاك بشـيء مـن الصعوبة والعسر مع طبقة الأغنياء، إلا أنها كانـت تعـيش عيشة سمحة لا عنت فيها ولا إرهاق.

وكانت شهيرة تستطيع أن تستغني باسم أبيها وبمـا تركه من مال عن تعلقها بأصحاب الألقاب وأصحاب الشهرة. فهي مثلا لم تزر خديجة إلا زيارات نادرة تستر بها واجبات القرابة، فلم يكن راشد ذا شهرة في المحيط الذي تحيـا فيـه شهيرة. وابنة عمها لا تمثل عندها إلا أنها ابنة باشا، وباشـا غير ذي شهرة، بل وغير ذي ما أيضا.

وهكذا لم تجد شهيرة داعيا أن تزورها، حتى إذا نال راشد الباشاوية أصبحت شهيرة لا تترك بيت خديجـة، بـل أصبحت لا تخفي عنها سرا من أسرارها.

كانت شهيرة تجد متعة في نطق كلمة باشا، وتحـس لها مذاقا في فمها، وموسيقى في أذنها، وتكاد تشم لها رائحة فواحة العبير في خياشيم أنفها. ونفس هذا الشعور من النشوة كان يلفها إذا ذكرت اسما من أسماء المشاهير في أي متجـه تحققت له الشهرة فيه. وإني لأعجب لهـا، ولا شـك أنـك ستعجب معي أن النساء الشهيرات في عالم الليل وفي غير ما يشرف المرأة أن تشتهر به، كن يثرن في نفسها نوعـا مـن التوفز حتى إذا تعرف بواحدة منهن اتخذت منهـا صـديقة مقربة توشك لا تفلت يوما لا تزورها فيه أو تتصل بها.

رحبت خديجة بصداقة ابنة عمها الجديدة. والحقيقـة أن شهيرة أنيسة الجلسة طيبة الحديث. يمر معها الوقـت لا تكاد جليستها تحس به. وقد سعدت شهيرة أن توثق صـلتها بجلفدان هانم والدة راشد باشا، وقد كان الجميع يناديها هـانم أفندي. كما سمعت ابنها يناديها في أول هذا الحـديث الـذي أسوقه إليك.

فكلمة هانم أفندي ذات رنين عند شهيرة، بل إنها تجد في نطقها أنها تختل عن الأخريات اللواتي لا يعـرفن سـيدة يقلن لها: هانم أفندي. ولا يهمها أن سبب هذه التسمية آت من

أن السيدة جلفدان كانت ابنة لإحدى حـريم السـلطان عبـد الحميد، وزوجها لواحد من أتباعه، وقد خطبها زوجها والـد راشد من تركيا وشفع له غناه فنسي أصـهاره أو أرادوا أن ينسوا أنه ليس إلا فلاحا لا يرقى إلى سماواتهم.

ليس شيء من هذا يقع موقع الأهمية عنـد شـهيرة. المهم أن تقول هانم أفندي. والمهم أن هانم أفنـدي أحبتهـا وتجمع الجلسة ثلاثتهن.

- ألا ترين طريقة لقريبتك هذه شهيرة هانم؟
- ما لها هانم أفندي؟
- لا تريد أن تأتي لنا بمولود؟
- وكانت خديجة تحب حماتها حبا طاغيـا، فهـي قـد تركت لها شئون المنزل تصنع فيه ما تشـاء، وقـد قدرت لها خديجة هذا، فجعلت إشارتها أمرا. فهـي تنفذ لها أوامرها قبل أن تنفذها لزوجها؛ ولهذا لم تكن أحاديث حماتها عن الإنجاب تثير في نفسها شيئا مـا يغضب له النساء عادة إذا طالعتهن الحموات بمثلـه. وعلى كل حال فقد كان لها مع حماتها في يومها ذاك شأن آخر.

- وهل بيدي هانم أفندي؟
- كل شيء بأمر الله هانم أفندي.
- ولكن يا بنتي يا شهيرة إنها لا تريد أن تسمع كلامـا في هذا الشأن.. علينا أن نحاول..
- نعم في هذا أنت محقة هانم أفندي.. ماذا جرى لك يا خديجة.. لا بد أن نحاول.. أعرف داية..
- اسكتي يا شهيرة.
- ألا تريدين حتى أن تسمعي؟
- هانم أفندي.. إني حامل.. وأنا أخبرك الآن قبـل أن أخبر الباشا. وسقط الصمت على الحديث المتحمس، وارتسمت ابتسامة على فم خديجة، واندلعت دهشـة وفرحة في عيني جلفدان وانعقـد لسـان شـهيرة.. لحظات.. بدت بطيئة ولكنها لحظات، ثـم انتفضـت هانم أفندي إلى دولاب نقودها وقبضت منه قبضـة وصاحت:
- يا بنات.. يا فهيمة يا سنية يا حبيبة..

وتقاطرت الخادمات إلى السيدة الكبيرة.؟

خذن.. خذي أنت وأنت وأنت.. زغـردن زغـردن جميعا.. افتحن الشبابيك.. افتحن الشبابيك. أنا آمـر بهـذا.. فتحن الشبابيك وزغردن ولا تتوقف منكن الزغاريـد حتـى يأتي الباشا ويسمعها منكن.

وأخذ الضحك السعيد بمجامع خديجة، وأحست شهيرة لأول مرة أنها لا تجد شيئا تقوله أو تفعله.

وخرجت جلفدان هانم من الحجرة، وراحت تصـدر الأوامر أن يبلوا الشربات وطلبت محمدين، وأمرته أن يفرق عيشا ولحما عند مقام السيدة زينب وسيدنا الحسين.

وقالت شهيرة لخديجة في اهتمام:

- جاءني عريس.
- من؟
- سامي حسنين.
- ابن خالتك. متى جاء من أوربا؟
- منذ شهر.
- أخذ الشهادة؟
- في الهندسة.
- وأنت ما رأيك؟

- تريدين الحق؟
- أريد الحق.
- هو بلا شخصية.
- بالنسبة لك ليس هذا عيبا.
- ماذا تعنين؟
- أنت لا تحبين أن يكون هناك رأي بجانب رأيك.
- وهو أيضا فقير.
- وهذا أيضا أحسن لك.
- أعوذ بالله منك.
- أنت غنية وغناك وفقره سيجعل كلمتك دائمـا هـي النافذة.
- دمه ثقيل.
- يخف.
- يعني.
- توكلي على الله.
- وارتفعت الزغاريد فعرفتـا أنهـا تسـتقبل الباشـا بالبشرى.

٨

انصبت أخبار القطن على فهمي عبد الحميد ترادفها الدهشة والعجب. ولعل بعض الندم ألم بـه، وسـأله النـاس فتظاهر بأنه مظلوم وإن لم يبد سببا. خشي أن يختلق سـببا فيحل به عقاب آخر. وخشي أن يقول الصدق فيحتقره الناس. لقد أدرك أن راشدا قد اصطنع ما ليس من خلقه ليرد عليـه تصرفه. لقد انتهب هو أموال راشد، آمنًا إلى أن راشد لـن يتخذ نفس الطريق ليسترد أمواله.

لم يستطع فهمي عبد الحميد أن يذهب إلى راشد بعد الحادث بفترة قصيرة وإنما آثر أن يترك الأيام تنسي النـاس ما حدث، وآثر أن يشعر راشدا أنه انتقم فيلاينه في الحديث. حتى إذا مر من الوقت ما أراد فهمي أن يمر، ذهـب إلـى راشد في بيته في مصر. فقد حرص ألا يرى رجال راشـد ورجاله ذله وانكساره، خاصة بعد أن عرف ما كـان مـن زيارة المدير ورجال الإدارة لبيت راشد بالبلدة وفي القاهرة.

- لم أتوقع هذا.

- لأني عشت عمري كله أكرمك وأكرم جوارك.
- فلماذا لم تكرم خطئي؟
- أنا لا أستطيع أن أكرم سـفالتك، لا أكـرم عنـدي للسفالة.
- كلنا في الهوى سوا يا سعادة الباشا.
- كذبت.
- حين تستحل صلة غير شريفة بصديق قريـب لـك تسمي هذا خلقا.
- أنا غير مستعد أن أدافع عن نفسي أمامك.
- ولقد حميتك أن تدافع عن نفسك أمام زكريا باشا.
- لو كنت أعطيتني الورقة دون استغلالها لجاز لك أن تقول هذا.
- وما البأس أن أستغلها وأنا في فقري هذا.
- لقد وقفت إلى جانبك في فقرك. وأنا لم أطالبك.
- فرصة لاحت لي.
- فرصة قذرة.
- ألا يجوز لي وأنا ابن البورصة أستغل ضربة حظ؟
- لقد صنعت أنت هذه الضربة واشتريتها من خادم لي.

- كيف عرفت؟
- الأمر لا يحتاج إلى ذكاء. ولو كنت ذكيا حقا لقدرت ذكاء الآخرين.
- كل منا له أن يبحث عن صالحه أينما وجد.
- ولكن يجب علينا أن نكون على شيء من الخلق.
- يا سعادة الباشا إننا نلعب على مائدة واحدة.
- ربما أكون قد أخطأت، ولكنني أعرف أننـي كنـت مخطئا وقد تبت..
- إنني منذ تزوجت لم أخن زوجتي.
- ولا خنت صديقا لك؟
- رددت خيانة أحدهم ولم أخنه.
- يا سعادة الباشا. لقد خنتك في مالك، وخنـت أنـت صديقك في عرضه. فلا أعتقد أنك الشخص المناسب للحديث عن الشرف.
- أنت خنتني في مالي وفي إكرامي لك.
- لم تذهب بعيدا عما ذهبت إليه.
- أما أنا فقد تبت.
- الله وحده يعلم ما في القلوب.

- ولكننا نحن البشر نعرف الظاهر من الأعمال.
- ظاهر الأعمال أنك استوليت على قطني بغير حق.
- أليس لي حق عندك؟
- أمام القانون لا حق لك.
- لو كان القانون يعطيني حقي ما لجأت إلى تحطيمه.
- وترى هذا عملا شريفا؟
- ألم تقترح أنت ألا تتكلم عن الشرف؟!
- هذا حقك.. وماذا تنوي أن تفعل؟
- أما أنا فقد فعلت.
- يخيل إلي أن عملك لم ينته.
- لن أسمح لك بزراعة أرضك حتى أسترد مالي الذي عندك.
- أكتب لك كمبيالة جديدة.
- معنى الكمبيالة أنني أقبل تسليفك وأنا لا أقبل.. فـي هذه المرة لا بد أن أسترد أموالي نقودا مثـل التـي أعطيتها لك.
- ولكن.. ولكن هذا مستحيل.

- ولماذا.. لقد غطيت خسارتك بالمبلغ الـذي أعطيتـه لك، ثم كسبت من أسهم الشـركة الخديويـة مبلـغ عشرين ألف جنيه، وكسبت صـفقة اتحـاد البنـوك ثلاثين ألف جنيه.. لو لم أكن أعرف أنك تستطيع رد أموالي لبحثت عن طريقة أخرى لاستردادها.
- تعرف عني كل شيء.
- لقد قلت الآن إننا نلعب على مائدة واحدة.
- نخصم ثمن القطن وأعطيك الباقي لك.
- أي قطن؟
- راشد بك.
- باشا إذا سمحت.
- راشد باشا. أتنوي..
- لقد نويت.
- وهل هذا معقول؟
- وهل ما فعلته معقول؟
- إن لي أولادا.. هذا حرام عليك..؟
- وهل لا بد أن يكون لي أولاد حتى أنال حقي، وعلى كل حال يا سيد اطمئن فإن ابني في الطريق.

- فمن أجل خاطره –إذًا- يا سعادة الباشا ارحمنـي.. أعرف أنك قادر، ولكنني أعرف أيضا أنك تعفـو إذا قدرت.
- بشرط واحد.
- لقد أحضرت معي المبلغ.
- اسمع يا فهمي. سأقبل المبلغ الذي أحضرته على أن ننسى كل شيء حدث بيننا في هذه الفترة.
- هذا شرط أبحث أنا عن تحقيقه إذا رفضت أنت.
- وهو كذلك.. هات المبلغ.
- شكرا يا سعادة الباشا.. ألف شكر.

٩

جاء المولود الأول لراشد باشا، وقد حلا له أن يسميه اسما عربيا عريقا، فسماه أسامة، وحاولت هـانم أفنـدي أن تعترض لتخلد اسم أبيها نيازي، ولكنها وجـدت مـن ابنهـا إصرارا، وقد صاحب مجيء أسامة فرح كبير فـي الأسـرة استبشرت خديجة واستبشرت به هانم أفندي، ولم يجد راشـد باشا بأسا أن يستبشر به أيضا. فقد تحدد يوم زواج شـهيرة من ابن خالتها سامي حسنين. وكان اليوم محددا بعد مـيلاد أسامة بعشرة أيام، وقد تصادف أن تم تحديد الموعد والميلاد في يوم واحد.

وفي المساء، وبعد أن استطاعت خديجة أن تسـتمر مع المهنئين، وهي في سرير ولادتها قالت شهيرة:

- والله لا أتزوج حتى تستطيعي أنت حضور فرحي.
- هل جننت يا شهيرة؟
- أكون مجنونة لو فعلت غير هذا.

وهكذا تجدد تحديد الموعد على يد الطبيب الذي أشرف على ميلاد أسامة. فالأطباء في ذلك الحين كانوا يشرفون على الولادة ولا يقومون بها. فإنه لا ينبغي للسيدات أن يلدن بمشهد من رجل حتى ولو كان طبيبا. فكان الطبيب يحضر الولادة جالسا مع الرجال، وكانت الداية التي يرشحها الطبيب هي التي تقوم بعملية الولادة نفسها. فإذا حدث خلل يستدعي تدخل الطبيب، فإنه حينئذ يتولى بنفسه العمل مباشرة. فقد كان ذلك الجيل لا يؤمن بأن الوقاية خير من العلاج ما دامت هذه الوقاية ستحطم عرفا عريقا كانكشاف الحريم على الزوج. وقد كان راشد جديرا أن يحطم هذا العرف لولا أن الطبيب طمأنه أن الولادة ستكون طبيعية، وأنه لا يوجد ما تخشى عواقبه.

لم يكن راشد من هؤلاء الذين يحبون أن يحطموا التقاليد بمجرد تحطيمها، وإنما كان يحطمها إذا تعارضت مع منطق الأمور ومعقوليتها، وأن قضاء شهر العسل في أوربا والطريقة التي أظهر بها زوجته على باريس لتدل على أنه لا ينتمي لهذا الجيل الذي يسلكه فيه زمانه ومولده وأسرته.

ولعل من العجيب أن راشدا كان بهذا التحضر العقلي في خاصة شأنه، وأن يحافظ في نفس الوقت على العرف والتقاليد محافظة صماء إذا لم تكن تتعارض مع رغباته وأهوائه ومزاجه الخاص.

فصلاته النسائية في مصر قبل الزواج مستورة لا يعرف عنها أحد شيئا، ولولا خطأ نسيان لما أتيح لفهمي ما أتيح له من الحصول على هذه الورقة.

أما صلاته النسائية في باريس فقد كانت صاخبة عديدة يسترده في علانيتها أن أحدا لا يعرفه هناك.

كان راشد شخصين متناقضين، وهما مع ذلك متوائمان في نفسه، متفاهمان لا يعارض واحد منهما الآخر، ولا يعترض أحدهما على ما يأتيه الثاني كتوأمين اختلفت أخلاق كل منهما عن الآخر، وتألفهما في الوقت نفسه الحب العميق والإعجاب.. كان كل من الراشدين في نفس راشد يعجب براشد الآخر ويحبه ويشيد في همسه به. ولولا خشية أن يقال: نرجسي يحب نفسه، لأعلن عن حب الراشدين أحدهما للآخر المكتوم في نفسه التي تبدو أمام الناس راشدا

واحدا. بل لقد كان هذا الحب المكتوم هو في ذاتـه صـانع الشخصيتين وسر حياتهما معا.

كان راشد العربيد يعجب براشـد الجامـد الصـلب المحافظ على التقاليد المعتني بملبسه عناية تقليدية. فلا ينسى أن يمسك العصا وأن تكون الياقة منشاة انقلب طرفاها إلـى أعلى، وتوسطها رباط عنق أنيق يتوسطه هو الآخر دبـوس ماسي عريق.

ويعجب راشد العربيد براشد في المحافـل العامـة، رافضا اختلاط الرجال بالنساء، ورافضا عمل المـرأة إلا أن تكون خادما بالمنازل، ورافضا كل ما تريـد الحضـارة أن تدخل به إلى العصر.

ويعجب راشد العربيد براشـد مقـيم الصـلاة فـي مواقيتها، وذاهب إلى المسجد من يوم الجمعة حتى إذا كـان في القرية سبقته السجادة ليصلي عليها. وإذا عرف في القرية أن شابا من شبابها يغازل امرأة أو يحاول أن يعتدي عليهـا، استقدمه وانهال عليه ضربا، حفاظا على الشرف، وردعا لكل من يحاول أن يحطم تقاليد الدين، وعرف الآباء والأجداد.

ويعجب راشد العربيد براشد فاتح بيته في القاهرة والريف كل ليالي رمضان ومشاهير المشايخ يتبادلون قراءة القرآن، ويؤم البيتين الناس يباركون هذا العرف العظيم الذي يصر راشد أن يحافظ عليه.

أما راشد، هذا التقليدي، فهو يعجب براشد العربيد في كل ما يأتيه راشد العربيد، سواء كان ما أتاه تاريخا لا يعود، أو واقعا يعيش فيه وسواء كان ذلك في باريس مفضوحا هناك محبا لإعلان العربدة؛ حيث لا يعرف أحد من ذلك العربيد، أم في القاهرة يأتي من يأتيه من النساء في محافظة على التقاليد وفي عربدة صامتة وقور، لا تتفاضح ولا تتعالن وإنما تستمتع في داخلها فتحتوي المتعة جميعا غير ذائعة ولا بادية. ولكل من الصخب والصمت والعربدة والوقار متعته في نفس راشد.

ولكن راشدا حين جاء أسامة أحس أن راشدا ثالثا وفد على الراشدين، وأحس أن هذا الثالث لن يجعل الأمور تجري فيما تعودت أن تجري فيه.

كان راشد براشديه يحس أنه حر وأن لديه من المال ما يكفيه لإرضاء نفسه فيرضي بها الراشدين جميعا. كان

المال عنده وسيلة يحقق بها ما تصبو إليه نفسه، سواء كـان هذا الذي تصبو إليه مرحا ومتعة، أم كان تعاظمـا ووقـارا. فملبسه دائما أفخم ملبس، وأثاث منزله أعظم أثاث، وسيارته أحدث طراز.

والمال متعة لا مثيل لها ما دام عند صاحبه وسيلة لا غاية.

والمال نقمة لا تماثلها نقمة إن أصبح هو فـي ذاتـه غاية لا وسيلة، وهدفا لا طريقا، وأملا لا سبيلًا لأمل.

أي شيطان ركبه فجعله يظن أنه ينبغي له أن يتـرك لابنه مالا أكثر مما يملك.

لقد أحس فجأة أنه لا بد له أن يضاعف الثروة التـي ورثها، حتى يرضي ابنه هذا الـذي مـازال فـي سـنوات الرضاع.

أصحيح أحس بهذا أم تراه هيأ لنفسه أن يحس هـذا الإحساس؟ هل يقلب الأبناء آباءهم رأسا على عقب؟

أيمكن لهذا الطفل الذي يلـوح طيفـا قادمـا علـى المستقبل لم تكتمل معالم وجهه أو جسمه.. مشروع الإنسـان هذا يستطيع أن يقلب شخصا في جبروت راشد، وفي اكتمال

عناصره، من شخص يريد المال ليستمتع به إلى شخص يريد المال للمال؟ أنا لا أصدق. أغلب الظن أنها رغبة خفية في نفسه تبحث لها عن باب يبدو مشروعا لتنقلب حقيقة، ولتجعل من صاحبها الذي عاش سيدا للمال إلى عبيد المال. فالذي يريد المال ليعيش به يظل سيدا لماله ولزمنه، فإذا أصبح المال في ذاته هو الغاية لذاته، لا لما يحققه لصاحبه من عيش رغيد، ينقلب المال حينئذ سيدا شرها قاسيا جبارا متسلطا بلا رحمة. ومن أين الرحمة وهو جماد بلا عاطفة؟ ومن أين وهو أكبر أعداء العاطفة، وباسمه هذا المادي تسمت كل المذاهب البعيدة عن روحانية البشر وعن إنسانية الإنسان. إنه يمثل الجانب الصلب الحاقد البشع في البشرية جميعا..

أكان راشد في دخيلة نفسه يريد الغنى للغنى، وليمتع نفسه بمتعه الظاهرة والخافية حتى إذا جاء أسامة بدا ما كان يخفيه.

من يستطيع أن يقول: علماء النفس هؤلاء أبعد الناس عن معرفة النفس، وشر ما تخادع النفس نفس صاحبها.. تلهو به، وتعميه عن حقائقه، وتجليه عن مواقعه من الحياة،

ويظن بذاته غير حقيقة ذاته، ويمضي إلى مسالك من الحيـاة لا تطيقها نفسه ولم تهيئه لها، فهو -ما عاش- متخـبط، وإن ظن بنفسه العلم والثبات، فإن صادفه شيء من النجاح ظـن أنه عرف الطريق، وهيهات هيهات أن يعرف. فإن كان ذلك الفيلسوف قد طلب إلى الإنسان أن يعرف نفسه في كلمتـين "اعرف نفسك" كأنهما بديهة من البديهات، فقد كان يـدري أو لعله لم يكن يدري أنه بهاتين الكلمتين قد طلب إلى الإنسـان أصعب ما تطلبه الحياة من الإنسان.

مسكين أسامة، اتخذه أبوه سببا، وما كان سببا، وجعل من مجيئه مستدار حياة وما يدري أسامة، ولـو درى لجثـا على ركبتيه لأبيه يرجوه أن يظل كما عاش حياته، سيد المال لا عبد المال.

إذا أصبح المال هو الهدف انعدم الهدف؛ فالأرقام لا تعرف نهاية، وما دمت لا تعرف لهدفك نهاية، فأنت ومن لا هدف له سواء، وويل لإنسان انعدم من حياته الهدف. بل لعل الذي يحياها مصادفة يترك لأيامها أعنة قياده ومتجه أحلامه ومسار آماله أعظم سعادة من إنسان جعل جمع المـال هـو الهدف، وهو الحياة، فإن هذا الإنسان المسكين جهـل أو أراد

أن يجهل أن الهدف قد انعدم من حياته، وإن كان قد وضـعه أمامه، فالمال المال والسعار السعار والحياة –إذًا- جحـيم لا ينتهي إلى نعيم، ونيران لا برد لها ولا سلام. والإنسان يومئذ يجهل الرقم الذي يريد أن يقف عنده، فإن قدره وبلغه أغـراه المال بما يعده، وتنهار حياة الإنسان تحت نعال المال ويصبح السيد عبدا وباختياره.

١٠

خسر عدلي القضية ضد أبيه، وربما كان يعلـم أنـه سيخسرها على أية حال فإن كان عقله قد حـال دون هـذه المعرفة فالذي لا شك فيه أن رواية زوجته كانـت تعـرف ذلك، وإنما حلالها أن يصبح اسم الباشا وابنه على كل لسان. فالحياة مع عدلي راكدة ورواية ليست خائنة بطبيعة تكوينها. فهي لم تخن زوجها ولا تنوي أن تخونه، وهي لهذا ضـيقة بحياتها معه ضيق ملالة، وهو نوع من الضيق يجعلها تبحث دائما عن تسلية. قد تكون هذه التسلية كبيرة كقضية الباشا أو صغيرة كانضمامها إلى مجموعتين من السـيدات إحـداهن للحديث، وهذه تضم خديجة وشهيرة ومجموعة أخرى للعـب الكونكان لعبا لا تلقي فيه بكثير من الأموال؛ فهـي ليسـت مغامرة بطبيعتها، وهي تعلم مقدار الغنى الذي انسكب علـى زوجها بعد وفاة أمه وخاصة أن أباه في ترفعه أبى أن يأخـذ

نصيبه من تركة زوجته وترك ذلك النصيب لابنه الذي رفع عليه دعوى السفه، فزاد هذا من إكبار الناس لزكريـا ومـن احتقارهم لعدلي. على أية حال لم يكن هذا الغنى سببا يجعل راوية تنفق المال فيما لا يفيد؛ فهي تقدر أن ابنتها التي جاءت بها والتي لا تنوي أن تجيء بغيرها لن تغفر لها تبديد أموال أبيها. وقد كانت ابنتها هالة هي كل شيء في حياتها.

فمادامت حياتها قد خلت من الزوج فلا أقل مـن أن تعمرها الابنة.

وهكذا استطاعت رواية أن تتواءم مع حياتها وتقبلها وتخلق فيها المتعة التي حرمتها بزواجها من هذا الأبله.

وقد كان عدلي خليقا أن ينعم بحياته هو أيضا؛ فهـو يستطيع دائما أن يجد أصناف الطعام التي يطهيها، ويستطيع دائما أيضا أن يجد مجالس النساء، ويشاركهن الحديث. كـان يستطيع هذا جميعه ولكن قضية أبيه حطمت كل المتع التـي كان يستطيع أن يخلقها لنفسه لقد وهم أن القضـية سـتحطم سمعة أبيه. فإذا هي لا تمس أباه في شيء، وإنما تحطم حياته هو تماما.

لقد وجد نفسه بني أصدقائه مجال سـخرية لاذعـة كانوا يخفونها عنه فأصبحوا يبدونها، بل لقد وجد السـيدات من صديقات أمه يشحن عنه بحديثهن، حتى لقد أحس فجـأة أنه لا يجد في حياته شيئا أو إنسـانا زوجـة لا تحدثـه إلا بصيغة الأمر، وهو بأوامرها هذه مطمئن إلى أن شئون البيت لا تحتاج منه إلى رعاية.

ولكن هو.. هو عدلي ماذا يصنع بحياته.. إن أموال أمه كلها عمارات، فهي لا تحتاج إلى إدارة، وإنما هي الدائرة يذهب منها موظفان كل شهر يجمعان الإيجارات، ثم لاشيء بعد ذلك وهو يذهب إلى دائرة أمه كل يوم ولكن بلا عمل.

تاه عدلي في الحياة وتاهت به الحياة.. لا يرافقه في التيه الممتلئ بالحسرة إلا صديقه عزت بهـادر.. لعلـك لا تذكره فقد مر ذكره عليك مرورا لا بريق فيه ولا لمعان.

وماذا بي أن أمعن عنده النظر، والحياة نفسها خلقته في عجلة فلم تجعل له عمقا يقف عند محب للتعمق.

أنه ابن خالة خديجة. وكان طبيعيا أن تقوم بينه وبين عدلي هذه الصداقة التي تجمع السـخفاء والضـائعين فـي مواكب التفاهات، يزيدهم الغنى تفاهة، ولا يستر عليهم حقيقة

أمرهم. ومن عجب أن تصحب فضيحة عـدلي مـع أبيـه فضيحة لعزت في الدوائر التي تحيط بهما.

كان عزت على صلة بسـيدة طلقـت حـديثا مـن زوجها.. وأعجبها جمال عزت، وربما أعجبها أيضا فراغه. فالسيدات في أحيان كثيرة يستطعن أن يعجبن بما لا يعجـبن بما لا يعجب به آخرون، ولم يكن عزت فـي صـلته بهـذه السيدة يطلب منها وفاء أو ولاء؛ فلقد عرف أنها اتصلت بعد أن عرفته باشا عجوزا أرغمته ظروف خارجة عن إرادته أن يعمل في الحياة السياسية، فإذا هو يتصدر منصـبا خطيـرا، وليس له في نيل منصبه سابقة فضل، ولا عرف عنه الذكاء لا قدر الله، وإنما هو منصب يتمنى كـل حـزب أن يكـون شاغله من أعضائه، وحتى لا يزيد هذا المنصب الخلافـات بين الأحزاب استقر الرأي أن شغله شخص لا ينتمي إلى أي حزب، ولا يعرف عنه أنه يميل إلى حـزب بعينـه وبـين شخصيات مصر جميعا لم يكن هناك إلا عبد المحسن باشـا وفيق فشغل المنصب.

وتعرف في إحدى الحفلات بنجاة طلبة. وفي خبـرة أدركت نجاة أنه طلبتها. فعزت وإن يكن غنيـا إلا أن غنـاه

ليس بالقدر الذي يتيح لها أن تنال ما تشاء. أما عبد المحسن باشا فغني غنى لا نهاية له.

كان الباشا في السبعين من عمره. وحين خرج مـن هذا الحفل كان موعد لقائه بنجاة قد تحدد.

والتقيا.

كانت نجاة حاملا منذ لقائها الأول بالباشا، وكانت قد أخبرت عزت أن يحدد موعدا مع طبيب يعرفانه ليخلصـهما من الجنين في شهره الأول. ولكن بعد أن تعرفـت بالباشـا اتجه رأيها إلى تفكير آخر.

- أنت لا تعرف منذ متى وأنا أحبك.
- هل كنت تعرفينني؟
- ومن في مصر لا يعرف عبد المحسن باشا وفيق؟
- لم أكن أتصور أن سيدة في جمالك تحب رجلا في..
- لا تكمل.. إن أجمل سيدات مصر يتمنين منك نظرة.
- أنت تبالغين.. إنني رجل عجوز.
- عجوز.. أنت عجوز.. فليسألني من لا يعرف وأنـا أدله على الخبر اليقين.
- فأنت ترين أنني.

- شاب في العشرين.. صحة تأكل الحديد.. ولكن هناك شرطا.
- مري.
- تحتفظ بهذه الصحة لي أنا وحدي.
- أنت تعرفين أن زوجتي ماتت.
- وأنا من أين أعرف.. ربما لك زوجـات أخريـات تخفيهن.
- زوجات بالجمع.
- صحتك هذه لا يكفيها عشر نساء.
- طمأنك الله.
- احلف.
- أحلف.
- أنا لا أصدقك.
- لا تصدقين يمين الباشا.
- أنت معي لست الباشا، إنك هنا الولد الشقي الـذي لا أضمن كلمة من كلامه.
- وماذا تريدين حتى تضمني؟

- هناك حكاية لم أتأكد منها.. إذا تأكدت سأخبرك مـا الذي أريده.

***

- اليوم لا بد لنا من حديث.
- أنا تحت أمرك.
- لا بد أن نتزوج.
- ماذا؟
- لا شك أنك سمعت.
- لماذا؟
- أولا هذا هو الوضع الطبيعي.. فأنا سـيدة مطلقـة، وأنت مهما تكن فأنت غريب. ومقابلتي لـك سـتثير الأقاويل.
- ولكن مركزي.. ماذا سيقول الناس إذا أنا تزوجت.
- أتخاف أن يقال تزوج بسنة الله ورسوله، ولا تخـاف أن يقال اتصل بسيدة عن غير طريق مشروع؟!
- ولكن.. ولكن.
- ولكن ماذا أنا لست من أسرة بسيطة.

- هذا مؤكد؛ فأنا أعرف المرحوم والدك، وليس هـذا هو الاعتراض مطلقا. إنما أخشى أن يضحكوا مـن رجل في السبعين.
- سنك هذا شأني أنا وحدي.. وأنا وحدي التـي أعلـم حقيقة سنك حين تخلو بنا الحجرة.
- يا حبيبتي.
- ومع كل هذا فأنا لم أقل لك الخبر المهم.
- وهناك أيضا خبر مهم.
- إني حامل.
- ماذا؟
- الذي حصل.
- لقد عشت مع زوجتي أكثر من أربعين سـنة، ولـم أنجب منها فأرا.
- ولكنك في شهور قلائل ستنجب مني طفـلا. وإنـي واثقة أنه سيولد بهذه الشوارب التي تحلي وجهـك، والتي يرسمها رسامو الكاريكاتير بدلا منك، ويقهقـه الباشا من فرح أو سعادة أو من النكتة. فقـد اخـتلط عليه الأمر ولم يعد يدري، ويعود إلى الجد لحظة.

- ولكن اسمعي.. اسمعي.
- قل.
- ألا يحسن أن يكون الزواج عرفيا؟
- ولماذا؟
- أنت تعرفين أن ثروتي كبيـرة. والطـامعون فيهـا كثيرون. وإذا عرفوا أنني تزوجت سيرفعون دعوى سفه علي. إذا كان الولد الأهبل عدلي رفعهـا علـى أبيه وهو أبوه. وإذا كانت دعوى السفه رفعت علـى زكريا باشا عبقري السياسة والقانون ألا ترفع علي؟ أما الزواج العرفي المستور فأنت تنالين بـه حقـوق ابنك.
- بعد الشر.
- اسمعي الكلام، ومع ذلك لا يشعر به أحد.
- أنا موافقة.

وتم الزواج بشهادة عبود عبـد القـادر السـفرجي، وسمعان عبد المولى السائق.

واستطاع الحمل بعد ذلك أن يظهر للعيان في غيـر خجل. وقد أصبح هذا الحمـل مزحـة صـويحبات نجـاة

تشاركهن السخرية منه. كما أصبح حديث الـدوائر التـي لا عمل لها إلا الحديث.

وعدلي وعزت يضحكان مع الضاحكين.

وقبل أن يفرح الباشا بقدوم ابنه انتقـل إلـى العـالم الآخر وانفجرت قضايا الميراث.

والعجيب أن الطفل جاء نسخة طبـق الأصـل مـن عزت. فقد أبت السماء أن تشارك الخـاطئين فـي جريمـة اختلاط الأنساب. والأعجب أن عزت أصبح هو الذي يـدور مع نجاة عند المحامين ليتمكن من إثبات بنوة ابنه إلى رجـل آخر. ولكن شهادة الميلاد على كل حال قد كتبت اسم الطفـل وجدي عبد المحسن وفيق.. وذهبت الشـهادة فـي طريقهـا القضائي، واستمرت علاقة عزت بوضعها هـذا العجيـب. واستمرت معها القضايا توشك أن يبين له نهايـة. فـالثروة ضخمة، وأبواب الطعن والتلاعب بالقانون هيهات أن تعرف حدا تقف عنده.

وهكذا أصبح عزت مثل عدلي سخرية السـاخرين. فما بعجيب أن تتوثق بينهما الصداقة. وكلاهما فـارغ بـلا عمل.

في هذا الفراغ وفي هذا الشعور من كل منهما أنهما يعيشان الحياة، ولا يعيشانها، بدأ ذهابهما إلى السباق يكـون منتظما، وبدأ أيضا جلوسهما إلى مائدة القمار يكون يوميا.

ويحدث مالا يتوقعه أحد. تحـاول راويـة أن تمنـع زوجها من اللعب، فإذا هي ولأول مرة تواجه مـن عـدلي عصيانا.

كيف استطاع أن يعصى. لم يكن القمار قد تمكن منه إلى درجة الإدمان. ولكنه أحس فجأة أنه يجب أن يعصـى. ويحدث شيء آخر لا يتوقعه أحد. لقد بـدأ عـدلي يتـوارى بقبحه في جمال عزت، ويبحث عـن النسـاء، ويحـاول أن يتعرف بهن، فإن رفضته واحدة لا تطيق قبحه، قبلته أخرى يغريها ماله.

ليس لعزت زوجة ولا ولد رسمي. فهو حـر يفعـل بماله ما يريد. أما عدلي فله ابنته وله زوجته.. إن ذهب عنه هذا المال، فأي مصير يمكن أن ينتظرهما أو ينتظرانه.

أصبحت راوية تنظر إلى الحياة في هلع، وأصـبحت فجأة تتمنى أن تعود إلى حياة الملالة، ولكن مازال هناك أمل يمكن أن تلجأ إليه.. ومالها لا تحاول؟!

١١

أصبحت سهير ممدوح حرم الباشا رسميا، وتصدرت بيت زوجها، وأحست بمكانها هذا الجديد، وخشيت العيـون الرواصد حواليهما، سواء كان ذلـك فـي المنـزل أو فـي خارجه، فأمرها اليوم وهي الزوجة الرسمية التـي تصـحب الباشا في كل مجتمع غير أمرها في بداية الزواج يوم كانـت تتستر عن العلن. لقد كان شعورها يومـذاك يغريهـا بهـذه الصلة التي أتاحتها لراشد، فقد كانت تحـس أنهـا عشـيقة وليست زوجة. أما اليوم فالوضع مختلف سهل الاخـتلاف. وما دامت هذه الصلة بينهما وبين رشاد قد مرت لـم تلكهـا الألسنة. فالحمد لله، وأصبح لا بد لهـا أن ترعـى مكانتهـا الجديدة ومستقبلها.

ولهذا لم تجد بأسا أن تلبي دعوة راشد لزوجها إلـى العشاء، ولم تجد بأسا أيضا أن توطـد صـداقتها بخديجـة.

وبطبيعة الحال وجدت شهيرة في اسم زكريا باشا ذلك الطنين الذي تهواه، فسعت إلى صلتها هذه بسـهير، تزيـدها ثبوتـا ورسوخا وقد وجدت سهير فيها خير صديق. فهي تماما التي تصلح لصداقتها. فإن تكن الثقافة والقـراءة والاطـلاع قـد أفسدت عقل خديجة وجعلتها في جلوسها إلى السيدات تبـدو غريبة، وإن بذلت غاية الجهد أن تبدو متوائمة مع الجلسـة. فإن شهيرة سيدة كما يجب أن تكون السيدات التـي تحـبهن سهير.. حكايات الآخرين والتعليقات الخبيثة أحيانا والفـاجرة أحيانا أخرى والذكية الطريفة غالبا.

كان أقصى أمل تسعى إليه سهير أن تأتي لزوجهـا الشيخ بمولود، وقد سألت الأطباء فوجدت أن ما تحلم به أمر يمكن الحدوث.

وهكذا ازدادت صلتها بشهيرة توطدا؛ فهي رفيقتهـا إلى كل المظان التي يمكن أن يحقق أملها. وحذار أن توحي إليك هذه الجملة بتفكير غير شريف، فهي فعلا تريد مولـودا لزكريا، على أن يكون زكريا أباه فهذه المظان هي الأطبـاء غالبا. وفي أحيان قليلة تكون هذه المظان بيوت الله يتملسـن البركة عند المشايخ الأطهار وآل البيت. وفي مـرة واحـدة

صحبتها شهيرة إلى أحد السحرة ولم تكررها، فقد خشـيتا أن يغضب الباشا إذا علم.

وكان حمل شهيرة سببا رائعا لتكون زيارتها للأطباء طبيعية، وكانت صداقتها لسهير تجعل رفقتها بهذه الطبيعـة نفسها.

وقد دلت بعض دلائل لا تكفي للتأكد أن أمل سـهير وشيك التحقيق.

كانت راوية تريد أن تقصد إلى سهير مباشرة، ولكنها لا تعرفها. وقد خشيت من لقاء خشن ستكون سهير معـذورة فيه بعد الذي فعله عدلي مع أبيه.

ولم تفكر راوية كثيرا، وإنما قصدت إلـى خديجـة. فهي تعرف حين مداخلها للأمور وذكائهـا وحكمتهـا عـن التقدير.

- مطلب غريب سأطلبه منك.
- على كل حال أنا لست غريبة وتستطيعين أن تطلبي مني ما تشائين بلا استثناء.
- حتى ولو كان مطلبا شاذا.

- أن لم تقصدي صديقتك المخلصة بالمطلب الشاذ فمن تقصدين؟
- أريد أن أصلح ما بين عدلي وزكريا باشا.
- أرى مطلبك حكيما وعاقلا بل رائعا أيضا.
- أنت تعرفين أن عدلي انغمس في القمار، وقد فشـل معه كل وسائلي، ويخيل إلي أن شعوره بغضب أبيه عليه هو الذي يجعله يندفع هذا الاندفاع.
- اسمعي إن تفكيرك كله صائب، ولكن لي رأيا.
- قولي.
- أنا سأسافر غدا إلى الحجاز مع الباشا لـنحج. ولـن يتاح لي أن أقابل زكريا باشا إلا بعد عودتي، ولكـن لي رأيا.
- وما هو؟
- ما سبب خلاف عدلي مع الباشا؟
- زواج الباشا.
- سأترك الحقائب وأنزل معك الآن إلى سهير أعرفـك بها، وسترين أنها تستحق كل خير.
- أتظنين ذلك؟

- هلمي بنا.

***

كانت سهير جالسة مع شهير، وأصبحت كل دقيقـة تمر على سهير دون أن يحدث جديد فيها يدنيها من أملهـا. وكانت السيدتان تتوقعان أية زيارة إلا أن تكون راوية.

ولكن سهيرة سيدة تعرف كيف تستقبل من يأتي إلى بيتها، حتى وإن لم يكن متوقعا.. بل حتى إن لم يكن كريمـا معها.

قالت راوية:

- أظن يا سهير هانم لم تكوني تتوقعين هـذه الزيـارة مني.
- على العكس كنت أتوقعها من زمن بعيد.
- وقالت شهيرة:
- طالما قلت لك إن سهير مندهشة أنك لم تأت إليها.
- كنت خائفة يا سهير هانم.
- أظن هانم هذه ليست في محلها.
- أنت مكان حماتي.

- ولكني أقاربك في السن. ونحن أقارب، وقد فرحـت بهذه الزيارة فرحا لا تستطيعين أن تتصوري مقداره. فقد كان بعد ابن الباشا وبعدك عنه ينغصني دائمـا، وليس له في الدنيا إلا أنت وزوجك.
- البركة في حضرتك.
- أنا لا أستطيع أن أعوضه عن ابنـه وزوجـة ابنـه وحفيدته التي لم يرها حتى الآن.
- وقالت خديجة في ذكاء لبق:
- يا أختي لقد أحضرتني بلا مناسبة.. لا لزوم لي فـي هذه الجلسة أبدا.
- لم أكن أعرف أن سهير هانم.
- وقالت سهير مقاطعة.
- هيه؟!
- سهير لطيفة إلى هذا الحد.
- وقال خديجة:
- وعرفت.. أروح أنا لأكمل حاجات السفر.
- وقالت شهيرة:

- حج مبرور يا ستي، والله لولا الذي أحملـه لـذهبت معك.
- وقالت خديجة:
- فلماذا لا تأتين أنت يا سهير، وها أنـت لا تحملـين شيئا.
- وقالت شهيرة في تخابث مقصود:
- وكيف عرفت؟
- وقالت خديجة في فرحة مندهشة:
- ما هذا؟ أصحيح هذا الكلام؟
- وأطرقت سهير وقالت شهيرة:
- ولم لا يا ستي. ألسنا مثل الأخريات؟
- وتحمست خديجة:
- ردي يا سهير.. صحيح هذا؟
- وقالت سهير في جمجمة:
- والله أخشى أن أقول نعم. وإن لم أتأكد بعد.
- يا أختي قولي نعم ولا يهمك.. ألف مبروك.

- وقالت رواية في فرح صادق، فهي تتمنى أن تنجـب سهير؛ فوجود طفل لها سيجعلها تزداد حبا لابنتهمـا هالة.
- ربنا يجعل دخلتي عليك مباركة إن شـاء الله. ولـو كانت غيرك وأنت أول مرة ترينني فيها لظننت أنني فرحانة من وراء قلبي، وأنني كنت أتمنى أن يفـوز زوجي بثروة أبيه، ولكن المال والحمد لله كثير، ولا ينقصنا، وليس لنا إلا هالـة ولا ننـوي أن نجـيء بغيرها. وكم أتمنى أن يأتي لها منك عم قريب مـن سنها، فيصبح لها كأخ من دمها ولحمها تسـتطيع أن تعتمد عليه. وفرحي بهذا الخبر فرح واحدة أحبتـك من أول زيارة، وفي نفس الوقت تريد أخا لابنتهـا. فصدقيني أنا فرحانة.
- يعلم الله يا راوية لقد صدقتك.. وأنا لم يكن يهمني أن يكون المولود ولدا أو بنتا ولكن بعـد الـذي قلتـه أصبحت أتمنى أن يكون ولدا.
- سأدعو لك عند شباك النبي إن شاء الله يـا سـهير، وسيكرمك الله بإذن الله، أفوتكم بعافية.

- هل أرسل لك السيارة يا راوية؟
- وردت سهير:
- سيارتنا ستوصلها لا تحملي هما.

***

- حين قصت سهير على زكريا باشا ما حدث.
- ألم تعرفي إن كانت جاءت بعلم عدلي أم بغير علمه.
- هي لم تقل ولكن الذي أتصوره أنها لم تقل له.
- أنا أمامي حل واحد.
- ما هو؟
- أنا أستطيع أن أعين عدلي في وظيفة خارج القطر.
- خارج القطر؟!
- نعم مثل فرنسا أو سويسرا. فهو مهندس وعليه أن يمارس هذا الذي تعلمه ليحس أنه يصنع شيئا في الحياة.
- ولكن يا زكريا إن له ابنة فكيف يكون الأمر..
- نعم هذا ما أريد الكلام فيه؟
- ماذا تريد؟
- أريد أن أربي البنت.

- ومالـه؟
- أنا أعرف أنك تتمنين طفلا وحفيدتي عندك سـتكون مثل ابنتك.
- أنا أريد أن أربي حفيدتك؛ لأنها حفيـدتك، لا لأنـي أريد طفلا.
- وما البأس أن تجمع هالة بين صفتي حفيدتي وابنتـك في وقت واحد؟
- أنا عندي طفلي ولست..
- ماذا.. ماذا قلت؟
- كنت أريد أن أتأكد قبل أن أقول لك، ولكن ليس مـن المعقول أن تعرف صاحباتي وأنت..
- هل أنت جادة؟
- وهل يمكن أن أهزر في مثل هذا؟
- وهل أنت متأكدة؟
- أكاد.
- وحجم زكريا باشا وجلس مفكرا.
- ماذا يا زكريا أكثير على طفل منك؟

- يا سهير فكري في الحكاية.. ما هذا الكـلام الـذي تقولين؟
- والله أنا زعلت.
- يا بنتي. لقد ظلمتك حين تزوجتك. وبهذا الطفل يكون ظلمي لك قد تضاعف.
- وهل شكوت لك؟
- سهير أنا لا أحتاج أن أسمع منك شكوى حتى أعرف الحقيقة.
- الحقيقة أنك تخاف أن يغضب عدلي إن جئت له بأخ. فأنت مهما يفعل بك تحبه.
- اسمعي يا سهير. عدلي أنا ظلمته؛ لأني شغلت بنفسي وبالسياسة ولم أعن أقل عناية بتربيته؛ ولهذا أنا أشفق عليه. أما الطفل الجديد، فأنا أحبه أكثر مـن عـدلي لأني أرى منه ما رأيته من عدلي.. حتى لو أصـبح في خلق عدلي، فإن الحياة لن تتيح لي أن أرى منـه شرا. أما تفكيري الذي رأيته، ووجومي فهـو أننـي أهملت ابني الأول بزحمة الحياة. وهأنذا سأهمل ابني الثاني بفضل الموت.

- زكريا ماذا تقول؟
- لقد جاوزت الخامسة والسبعين. فكيف أن تتيح لـي الحياة تربية ابن مازال جنينا في عالم الغيب.
- أهذا ما يحزنك؟
- ومع ذلك فأنا لست حزينا. ففرحك بطفلـك يجعلنـي فرحا به أنا أيضا.. كل ما في الأمر أننـي أفكـر.. أعجيب على رجل في مثل سني أن يفكر.
- اتركها على الله يا زكريا.
- إن الله –سبحانه- لديه الكثير الذي يشغله. هل كان لا بد لرجل مسن أن يشغله هو أيضا بطفل يأتي به وهو في آخر العمر.
- لا تحاول أن تفكر لله أيضا يا زكريا.
- أستغفر الله العظيم.
- أستغفر الله العظيم.

١٢

لم يكن ذهاب راشد إلى الحج خطوة عابرة، ولكـن الحقيقة أنه مع كل العربدة التي صخبت بها حياتـه مـؤمن عميق الإيمان، وهو منذ تزوج استطاع أن يجعل من خديجة أنسه الصاخب حين يشاء، وزوجته حين يقتضي الأمر، فهو تائب.

وحين أتى إليه أسامة أراد أن يقفل من كتابه صفحات يخشى في فترات ملل أن يغري بفتحها ويعود إليها.

فصحب خديجة واتجه إلى بيت الله واسـتلم أركـان الكعبة، وتغشاه ذلك الرهب الأمين الذي يعرفه من يعرفـون الله، وانسربت من عينيه الدمعات، والتفت إلى خديجة تظلها صفحة البيت الحرام، فرأى في وجهها الخشوع حيا فواحـا بأريج من العطر حسب اللحظات أنه يراوحها مـن سـمات صاحب البيت واستغفر الله، وأطرق وظلت هي رانية العينين

إلى الكعبة، يوشك من يراها أن يظن أنها تستشف من وراء الأستار وجه عزيز كريم.

طافا وأديا مناسك الحج، وانتقلا إلى بيت النبي، وما إن وقف في رحابه راشد حتى ذهل عن الدنيا وتولته خفقة أرعشته، فإذا هو بكاء وبكاء، يكاد جسمه يستحيل إلى عبرت، وارتمى على أعتاب النبي، كأنه صديق قديم يلقي بنفسه إلى أحضانه، وراح يصيح هذا مكان الخطائين يا رسول الله فاشفع.. اشفع فربما أخطأنا لتشفع.

وأحست خديجة أن بينها وبين النبي سببا؛ فهي سمية حبه الأول، وحضن رسالته الدفيء، وهي منذ عرفت الحياة تركع في إيمان وتسجد في صدق مع نفسها ومع الله.. إن القبر الذي أمامها يضم من الدنيا أحب الدنيا إليها، ويضم من الآخرة وسيلتها إلى أجمل ما تعد به الآخرة من لقاء وجه الله.

نسي راشد أن بجانبه زوجته، بل نسي أنه زوج، ونسي أن له ابنا ينبغي أن يدعو الله في هذه السدة الزكية.

ونسيت خديجة أنها في صحبة زوجها، بل ذهلت عما يحيط بها، ونسيت -وهي الأم- ابنها.

حتى إذا هدأ بعض الروع من الزوج والزوجة أشار المطوف في هدوء صوته وكأنه أمر عادي ليس له ما له من جدال وسموق.

- هنا كان ينزل الوحي على رسول الله.

وانتفض رائد وكأنما مسه المس.. هنا.. هنا التقـت السماء بالأرض، أكرم سماء بأكرم من فـي الأرض، آخـر لقاء عرفه الكون. هنا انقلبت موازين العالم من الجبروت إلى المساواة، ومن العزة بالإثم إلى عبـادة رحمـن السـماوات والأرض، ومن الفجور إلى العفة، ومن الوهم إلى الحقيقـة، ومن عبث الحياة والموت إلى مجد الدنيا والآخـرة، ومـن الحضيض إلى القمم الشامخات. ارتمى بجانب مكان الـوحي وراح ينظر إليه في خشوع وحب، ثم استجمع وقام فصـلى وحين ختم الصلاة آفاق إلى خديجة تنهي صلاتها هي أيضا.

لقد زار راشد العالم أجمع، ولكن شيئا لم يزلزل كيان جميعا كما زلزل في رحاب الله وفي حضرة النبي الأعظـم، ليس متصوفا وإنما هو مؤمن. فما هذا الذي لقف نفسه جميعا وهزها، فانتفضت كشجرة في بواكير حياتها تناوحتها ريـح عاتية تقتل شم الأشجار وعواليها، ولكن العجيب أنه أحس أن

شجرته ازدادت ثبوتا في سماوات الإيمـان وفـي أحضـان الخلود.

أحس أنه يريد أن يذوب تخشـعا وحمـدا لله، أنـه مؤمن. فبهذا الإيمان تفجرت في نفسـه هـذه الإشـعاعات النورانية، فعانق نوعا علويا من السعادة لم يعرفه فـي أيـة لحظة من لحظات حياته.. عربيدة كانت هذه اللحظات، أمـا لحظات مؤمنة قانتات.

مساكين أولئك الذين لا إله لهم ولا دين ترسو علـى شواطئه الآمنة الجازعات من أيامهم، والهالع من مضـطرب حياتهم يقطعون حياتهم هبـاءة هائمـة تقطعـت أواصـرها بأصولها، وانعدمت طرقها إلى المستقبل، لا تدري من أيـن ولا تدري إلى أين. باختيارها ألقت بنفسها إلى الضياع فشمل الضياع ماضي حياتها ومستقبلها وما بعد المستقبل.

ودع راشد وخديجة الأراضي المقدسة واسـتقبلتهما على الباخرة جماعة من الأصدقاء.

وحين استقر بهما المقام في بيتهما بالقاهرة أقام حفلا كبيرا، دعوا إليه من تعودا أن يدعواهم ولكن الرهط المدعو فوجئ بشيئين لو لم يكن الداعي هو رشاد، لكانت المفاجـأة

أعظم وطأة وأشد غرابة. لقد أقام راشد بمناسبة حجه وحـج زوجته إلى بيت الله الحرام حفلا غنائيـا أحيتـه أم كلثـوم، والأعجب من ذلك أن الخدم داروا في الحفل بكئوس الويسكي والكونياك. وكل ما تعود رشاد أن يقدمه في ولائمه الشـيء الجديد الوحيد الذي خجل أن يعمله في يوم هذا أن يشـارك أصدقاءه في شرب الخمر.

١٣

انقلب زكريا باشا إلى إنسان آخر بعد أن وهب لـه يحيى، وجاءت حفيدته هالة معه بعد أن سـافر أبوهـا إلـى سويسرا ليعمل مهندسا في شركة عالمية للكهرباء.

لم يصبح زكريا باشا ذلك الرجل الوقـور الـذي لا ينطق كلمة إلا بعد أن تمر بمئات المرشحات في عقله الكبير وثقافته الواسعة التي جمعت ثقافة السياسة والقـانون والأدب والمجتمع جميعا في رأس واحد هو رأس ذلك الرجل.

أصبح الآن لا يغادر بيته فرحا بغبط الطفل الوليـد، وسذاجة الطفلة التي تتحطم على شفتيها الكلمات.

والأعجب من ذلك أنه حين يجلس فـي مجتمعـه لا يفوته أن يذكر شيئا من ضحكات ابنه أو بكائه، وشيئا آخـر من انقلاب الكلمات إلى ألغاز على لسان حفيدته.

أصبح الرجل الذي لم يهتم بابنه في بواكير الشباب، فجعله يخرج إلى الحياة مثقفا ثقافة امرأة جاهلة، أو ثقافة طاهٍ على أكثر تقدير. يحاول اليوم أن يثقف ابنة هذا الابن أعظـم ثقافة، بل إنه في تعجله للأيام وفي خشيته أن تعاجله بالنهاية قبل أن ينفذ لابنه وحفيدته ما يهفو إليه، راح يحاول محاولات تدعو إلى السخرية أن يثقف يحيى نفسه، وهو على كتف أمه أو كتف مربيته.

ويوم تصبح سن هالة صـالحة؛ لأن تـذهب إلـى المدرسة يذهب هو شخصيا معها إلى مدرسـة السـكركير، وتشعر الراهبات بأهمية الطفلة عند جدها، ويقصـد هـو أن يؤكد هذا الشعور. فيذهب بعد ذلك كل أسبوع ليكـون علـى متابعة تامة لتقدم حفيدته في الدراسة.

وتدرك سهير أن في إرضائها لها له إرضاء للباشا، فتحرص على أن تدللها دائما. ولم تكن سـهير غبيـة، فـلا يفوتها أن تجعل الطفلة تخاف جدها؛ حتى لا تكـون حياتهـا كلها تدليلا، ويحمل الباشا مسئولية التأديب بقلب خافق. ولكنه يدرك أنه لا بد من ذلك لتكون هالة كما ينبغي لها أن تكون.

ويوم يصبح يحيى صالحا للـذهاب إلـى المدرسـة يقضي الباشا ليلة بيضاء، فلا يزوره النـوم حتـى بـواكير الصباح.

لقد عاش حتى دخل يحيى إلى المدرسة، فمـا الـذي يخبئه الغد لهذا الطفل؟ وأي مصير يلقى إليه إذا هـو ذهـب إلى لقاء به قبل أن يشب الطفل ويصـبح جـديرا بمواجهـة الحياة مواجهة جديرة بالحياة وبإنسان الحياة. لقد كان شـبح عدلي يخيف زكريا باشا.

فهو يخش أن يصبح الأخ مثل أخيه، بـل أشـد مـا يخشاه أن يصبح عدلي مسئولا عن يحيى. ويحيى بعد قضيب لدن يسهل تشكيله، وويل ليحيى إذا شكل أخاه على شكله هو، عن سهير طيبة سمحة النفس. وقد ينفع هذا فـي أن يجعـل يحيى نقي الضمير قريبا إلى نفوس الناس، ولكن هذا بالتأكيد لا ينفع يحيى في أن يكون مثقفا. فليست سهير على شيء من الثقافة.. ليته كانت مثل خديجة. إن راشد لا شك مطمئن على ابنه. فقد جاء به وهو في سن باكرة، ثم هو لا يخشى عليـه الغد إذا اختار هذا الغد أن يسلك راشد طريقه إلى الله.

طالما نادينا بأهمية تعليم المرأة وظنوا بنا الظنـون، وحسبوا أننا بما ندعو إليه نحاول أن نقترب إلى الغرب فـي عماية، ودون نظر إلى ديننا وتراثنا. وأنا لا أعرف في الدين شيئا يمنع تعليم المرأة. بل إن ديننا أول دين جعل لها كيانـا وذمة مستقلة عن ذمة الزوج.

أهذا وقته. من ليحيى في غده.

لقد جاوزت العمر وأنا أعلم أني اليوم أقـف علـى مشارف الجانب الآخر من الحياة.

أرأيت، لا يستطيع العقل أن يحل كل المشكلات لا بد من هذه الغرفة المضيئة من الإيمان لنحيـا بهـا؛ فلولاهـا لجزعت أيامي كلها، وقضيت ما بقي لي من الحياة مجنونـا ملهوفا على مستقبل ابني، هالعا من الغد وحينذاك أبدد أيامي الباقية في الخوف، ويسلمني الخوف إلى سوء الرأي.. لـيس لي إلا أن أكل الأمر إلى الله. والموت والحياة بيـده. وبهـذا الموت أو الحياة يتحدد مصير ابني يحيى وحفيـدتي هالـة.. إذن فهل نحن مخيرون أم مسيرون. نحن لا نتحكم في مولد أو موت وإذن..؟!

ما بين هذين نحن فيه مخيرون. ومصير يحيى ألا يرتبط ارتباطا وثيقا بموتي وحياتي.. أهو بعد هذا مسير أو مخير؟

لقد اخترت أنا أن أجيء به، وأنا في هذه السن. وهذا في ذاته اختيار. ثم حين يشب عن الطوق هو مخير فيما يفعل. أهو مخير أم تحكمه تربيته.. وكيف سار نهجه في الحياة وكيف رباه من رباه. ولكن الذي رباه أيا كان سواء كنت أنا أم كانت أمه أم كان أخاه قد اختار له الطريق. فالاختيار -إذًا- يحكم حياته.. سواء كان ذلك اختياره هو أم اختيار من أشرف على نشأته. لا يعقل أن السماء وهي العدل المطلق تجبر الإنسان ثم تحاسبه. لا محاسبة إلا مع الاختيار. وبهذا يختلف جبار السماوات والأرض، وهو العدل في قمم العدل الشامخة، عن الجبارين في الأرض الذين ينزلون حكمهم على من لا يملكون الاختيار.

أجبر واختيار ومدرسة يحيى غدا، وأنا لا أدري ما مصيره وما مستقبله.

إنني تاركها إلى الله.. وهل بيدي إلا أن أتركها الله.

ومن يدري لعل يحيى.. أعوذ بالله.. ليس لي غيـر الله.. أنا لم أقصر.. ولكنني قصرت.. أتزوج في هذه السن، وآتي به أيضا ثم أزعم أنني لم أقصر.

لقد أخطأت وابني.. لهفي عليه.. هو الذي سيتحمل الخطأ لا أنا.

أخطأت مع عدلي حين أهملت شأنه.

وأخطأت مع يحيى حين جئت به.. وحسبي الله.

ولكن أكنت أملك إلا أن أجيء به؟

طبعا.

وأمه.

ما شأنها؟

ما ذنبها.. إنها شابة وتري أن تصبح أما.

فليكن –إذًا- أبو ابنها غير هذا العجوز الذي هو أنا.

الخطأ يبدأ يوم تزوجتها.. إذن.

لا سبيل لأي "إذن".. لقد أخطأت وعلي وحدي.. يـا ليت علي وحدي يقع العبء.. وإنما ولدي هو الذي سـيحمل العبء، ولا ذنب له فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٤

نظرت شهيرة إلى ابنتها طويلا.. لم تكن تدري لهذه النظرة سببا، وإنما هي ألقت عينها على بهيرة، ثـم ثبتتهـا بحسب من يراها أنها نظرة بلهاء خالية من أي معنى. إلا أن نظرها اتجه إلى هذا المتجه، ثم شرد ذهنها وهي فـي هـذه اللحظة. ولكن لو أزاحت عن الإنسان فيها مـا يتغلـف بـه الإنسان من أسرار لرأينا في جوانحها هلعا على ابنتها، أو إذا شئت الدقة في التعبير، ومالك لا تشاء، ما دمت قد التزمـت أنا أن أقص عليك، وأن أكون دقيقا حين أخاطبك.

كان هلع شهيرة على نفسها لا على ابنتها، لقد قبلـت زواجها من سامي، وحسبت أن الزوج بلا شخصية هو أصلح زوج لها، ثم ما لبثت أن تبينت أن الزوج بـلا شخصـية لا يصلح للحياة مطلقا، فهو ما يلبث مع الأيام أن يصبح شيئا بلا طعم ولا لون ولا رائحة. قد يكون مريحا لزوجته، ولكنهـا

تلك الراحة التي تسعد بها المرأة من خادم في البيت، وتشقى بها غاية الشقاء من زوج يفترض المجتمـع أن يكـون هـو السيد.

وسامي مسكين لا يستطيع أن يكون سيدا أبدا. فالسيد لابد أن يكو مهيأ لذلك بخلقه الشـخص، أو بمالـه أو بهمـا جميعا.

يمكن أن يكون السيد سيدا أو رجـلا ذا وجـود إذا كانت الطبيعة قد وهبت له هذا السر العجيب الـذي يجعـل الإنسان معتزا بأنه إنسان، وبأن الله كرمه على العالمين، فلا ينبغي له أن يذل الإنسان الذي كرمه الله فيه.

يمكن أن يكون رجـلا ذا وجـود إذا اسـتطاع أن يروض أقدامه أن تسير على هذه الشعرة الواهية التي تفصل بين الإنسان الذي يحافظ على كرامته، وبين الإنسان التافـه يحاول أن يحجب تفاهته بغروره.

وتلك موهبة ينميها البيت والمجتمع الذي يعيش فيـه الإنسان. وليس من الحتم أن يكون المرء غنيا لتنمـو هـذه الموهبة، وإنما من الحتم أن يكون هذا الإنسان نابتا بين أناس يعرفون كيف يكرمون أنفسهم، وكيف يكونون كرماء علـى

الناس، يستغنون عن الغني بالعفة، وعن الغرور بلين الجانب وحسن المعاشرة.

وقد يستطيع المال أن يحجـب عيـوب الشخصـية المتلاشية، ولكن قليلا ما يحجبها، ثم ما يلبث الأقربـون أن يدركوا الحقيقة، ويسقط حجاب المـال، وتبقـى الشخصـية الزائلة.

وكان سامي يجمع بين الشخصية الضائع وبين قلـة المال، وابتكر لنفسه أيضا عدم العفة، فهو يريـد أن يلـبس أحسن ملبس ويأكل أحسن مأكل، ولا يجد حرجا مـن نفسـه ولا من كرامته أن يلقي بهذا الثقل أيضا على زوجته، غيـر مكتف أنها تقوم بشأن البيت وحدها.

وقد يكون عيب سامي هذا شيئا لا يصيب إلا خاصته الأقربين ومن يلاصقونه في الحياة. ومن أقـرب إليـه مـن زوجته ومن ألصق به منها؟ ولكن ألا يكفي أن يصاب منـه هؤلاء.. وما الناس جميعا إذا كـان هـؤلاء لا يكنّـون لـه الاحتقار.

حين تسقط قيمة الزوج عند زوجته يصبح كل شيء لها مباحا. ربما تكون شريفة الجوهر.. وربما تكـون هـي

نفسها أبية تنأي بشرفها عن الألسنة اللاهيـة التـي تتنمـر بالمجتمع لتجعل السر فيه جهرا، والخفي علنـا، والخبـيء شهيرا، والمستور مفضوحا.

ولكن زوجا كزوج شهيرة كفيل بأن يجعلها تنتقم منه حتى ولو كان عرضها هو أداة الانتقام. وقد تنازعها الرغبة عن العفة، وقد تتغلب العفة آخر الأمر. أو قد تنتظر المـرأة انتظارا غير لهيف وغير مكترث، ولكن انتظار ترقب، وقـد تعرض لها سانحة الخيانة، وقد تتردد وقد تقبل أيضا.

كانت شهيرة وهي تنظر إلى ابنتها في هـذه الفتـرة التي تتردد فيها والتي توشك فيها أن تقبل.

وكان الذي يعرض الفرصة لزوجها جمعت بينهمـا صداقة طبيعية؛ فهو رئيس زوجها في العمل. ويتمتع سـامي برضاء شكري بك الكيلاني؛ فهو يحسن أن يكون مطيعا.

ومرض سامي بضعة أيام فـزاره شـكري.. ورأى شهيرة فتوثقت الصداقة بين شكري بك الكيلاني و.. وسامي.

وكان طبيعيا أن تؤدي هذه الصداقة أن يطلب شكري بك شهيرة هانم كل يوم، ويتحرى أن يكـون هـذا الطلـب وسامي في مكان العمل.

وتنظر شهيرة إلى ابنتها بهيرة.

أي غد ينتظرك؟!

أب موجود بلا وجود!!

وأم لا تمنع غير زوجها أن يتصل بها.. ولا تـرى بأسا أن توغل العلاقة إلى أبعد من ذلك.

بهيرة.. أي مصير ينتظرك؟!

١٥

نزل راشد باشا من سيارته والتفت إلى السائق عبده خليل في هدوء:

- سيأتي أحدهم لتسلم السيارة.. سلمها له.
- أمرك سعادة الباشا.

ودخل راشد باشا إلى حجرة مكتبه، وجلس إلى المكتب البالغ الأناقة الذي ينتمي إلى عهد لويس السادس عشر، والذي يقال إن بعض وزراء هذا العهد كانوا يجلسون إليه، ولكن راشدا لم ينظر إلى المكتب الأنيق، وإنما كل ما فعله أن خلع الطربوش وجلس على كرسي المكتب ورفع رجليه ليستقر بهما على مكتب لويس السادس عشر. ونظر إلى سقف الحجرة ورحات عيناه في تهاويل السقف التي تصور ملائك السماء يدفون بأجنحتهم حول ملاك كبير تباعد جناحاه المذهبان، وارتسمت على شفتيه ابتسامة وداع مطمئنة لا تستطيع أن يفزعها أو يشغلها عن اطمئنانها مفزع أو

شاغل.. إنها ابتسامة ترنو إلى السماء وتطمئن إليهـا. ومـا دامت بالسماء قد تعلقت فلا شيء يعنيها بعد ذلك.. لا شيء.

وحين توغل العين في الابتسامة وفي عين المـلاك تجد صفاء وتجد مرحبا لكل بني الإنسـان، يؤكـدها هـذان الجناحان اللذان يفرشان السـماء كأنهمـا ذراعـان تتهيـآن لاحتضان عزيز عائد.

كان راشد باشا ينظر إلى هذا جميعه، ولكن عينيـه كانتا لا تتبينان من التهاويل شيئا.

يراها ولا يراها. تتماوج الصور في عينيـه فتبـين وتختفي وتلوح حتى تبدو وكأنها مجسمة واضحة، وتتلاشـى حتى ليعلوها الضباب أو كأنما تمحوها أفـواج مـن الظـن وأستار من الأوهام. يفكر راشد باشا ولكنه لا يفكر، ويندهش ولك لا يبدو التعجب على وجهه. تتزاحم صور وجـوه مـع صور السقف، فلا يتضح رسم ولا تتبلور صورة ولا يتحـدد وجه.

ربما توسط أمواج الطيوف أسامة في وجهه البريء وفي كلامه الجديد الطازج الذي يقع من أذن أبيه وأمه موقع النغم السماوي المنسجم. يذكر ما تعلم في المدرسة، ويبـاهي

به، وكأنما تعلمه وحده ولا يعرفه أحد من الناس غيـره. ولا تغيب صورة أسامة وإنما يزحف عليها وجه خديجة، ويتقلب على مدى السنوات التي تزوجها فيها غير حريص في تقلبـه على الترتيب الزمني، ولا على ترتيب ظهور لهذه التجاعيـد القليلة التي بدأت ترسم في نبل على صفحات وجهها. قد تبدو أمه معها وهي في المرآة أول يوم رآها، ثم قد تقفز السنوات إلى يوم بشرته الزغاريد بمجيء أسامة، أو قد تبـدو وهـي تتكلم معه في خاصة أمورهما، أو وهي تتكلم في المجتمعات العامة فتحيط بها هالات من الإعجاب، أو قد تحيط بها أيضا هالات الحسد. وقد تبدو أمه، وقد يذكر مرضـها وتشـبثها بالفراش، وقد يثب وجه حمزة البلاشوني ثم فهمي عبد الحميد يكبر وجهه ويكبر حتى لا يتيح لأحد، ولا حتى لأسـامة أن يبقى معه في إطار الصورة. بل العجيب أنه يزيح أسامة أول ما يزيح، والأعجب أنه ما يلبث أن يضمه، ويحتويه وكأنـه يهدهد أحلامه.

ويغمض الباشا عينيه، ولكن صورة فهمـي متشـبثة بالظلام تشبثها بالنور. ويهز الباشا رأسه فتحمـي الصـورة مرغمة.

ويعود نظر الباشا فلا يرى إلا تهاويل السقف، وتعود الصور إلى الوضوح، ثم ترين عليها أستار مـن الـوهم أو أستار من الضباب.

وكأنما يثوب راشد إلى مكانه، فتعلو وجهه فترة من الأسى، وقد تفكر دمعتان أن تستبيحا عينيه الشامختين، ثم ما تلبث الدمعتان أن ترتدئا هالعتين تزجرهما كبرياء العينين أن تظهرا إلا في العميق في أنف الرجل الأشم. رافضا أن يبدو منه للعيان ألم، حتى إن كان خاليا إلى نفسه. فهذا المكتب بما يضم من أثاث، وما تحويه جدرانه وسقفه من نقوش أشـياء خارجة عن نفسه، لا يجوز لها أن تعرف ما بداخلها أو تطلع عليه.

لم يكن يغبى أن هذا الذي يطالعه اليوم أمر يقع لكل من يعمل في ميدانه. ولكن الذي كان يدهش له أنه كان يتقي هذا اليوم بكل ذكائه وكل خبرته. وفي سرحة تفكير اسـتعاد بها الأحداث الأخيرة أدرك أنه تخلى عن ذكائه وعن خبرتـه جميعا يوم أراد أن يجتاح أسواق البورصة ليكون لأبنه أعظم قدر من الثراء. وفي انشغاله بالنظر إلى الهدف عمـي عـن الطريق وغفل عن مزالقه.

لقد أصبح "ميداس" ملك الذهب الأسـطوري الـذي أحب الذهب حتى انقلب إلى ذهب. وإذا انقلب العقل وتجاربه إلى جماد حتى إن كان ذهبا كف عن العمل الأصـيل الـذي خلق من أجله. وانهار الإنسان؛ لأن الإنسان تركيب يختلـف تماما عن تركيب الذهب.. هكذا الأسطورة. أما في الحياة فإن العقل يتوقف، والتجارب تنزوي ذليلة، وينهار الإنسان ولكن شيئا من العقل والتجارب أو الإنسان لا يصبح ذهبا.

لقد استعبده المال ففقد الاختيـار، وإذا فقـد العقـل الاختيار فقد معه سبب وجوده فـي الحيـاة. والعجيـب أن الإنسان صاحب هذا العقل لا يدرك هذا؛ لأنه لا يسـتطيع أن يدركه إلا بالعقل الذي توقف عن العمل، ومن هنا أجد نفسي مخطئا. إنني بدأت هذه الجملة بالتعجب، بينما العجيب حقا ألا يحدث هذا.

لقد فقد حضرة صاحب السعادة راشد باشا برهان كل ما يملك، وما دمنا نريد الدقة في التعبير، فقد أصبح كل مـا يملكه سعادة راشد باشا وبرهان مرهونا رهنا حيازيا لدائنين مختلفين، من بينهم فهمي عبد الحميد، وجود هذا الدائن بـين

الدائنين يجعل راشدا على ثقة مؤكدة أن الدائنين لن يتجاوزا يوم البيع بيوم واحد.

لو أمعن راشد التفكير لكان الحل الطبيعي الذي يؤدي إليه المنطق الأخرس الجامد الذي لا يعرف السماء أن ينتحر سعادة الباشا. فهذا هو أسهل الطرق التي يستطيع أن يسـير فيها. فهو لا يطيق أن يرى زوجته تلبس أخلاق الثيـاب، أو يرى ابنه يتكفف الناس يسألهم ما يرد به الجوع.

ولكن فكرة الانتحار هذه هي الفكرة الوحيدة التـي لا تجرؤ أن تقترب من ذهن الرجل الصامد راشد برهان. لقـد عاش غنيا، وسوف يثبت لنفسه وللناس أنه يستطيع أن يعيش فقيرا. ويظل على الحالين كريما على نفسه. ومن كان كريما على نفسه، فهو كريم على الناس، عن رغمت مـن بعـض الناس أنوف.

في لحظته تلك لم يكن يعرف إلا أنـه يسـتطيع أن يعيش، ولكنه في لحظته تلك لم يعرف كيف سـيعيش. كـان يدري كل الدراية أنه مؤمن بالله، وأنه لن يذهب إلى ربابـه إلا في طريق يرضاه الله لمن يؤمنون به.

والعجيب أنه في لحظته القاتمة القاسية العاصفة، بل التي سكنت فيها العاصفة عن خرابه الكامل.. في هذه اللحظة يغبط نفسه.. لقد وجد فيها شيئا أكرم من الغنى وأغلى من المال. لقد وجد الطمأنينة إلى السماء والإيمان بالله. ماذا يفعل غير المؤمنين لو تعرضوا لما يتعرض له. كان شامخا إن استطاعت نفسه أن تقر، وهي تحس أن في ثنايا نسيجها تنداح هذه النفحة الزكية الأمينة الحانية التي لا يستطيع أن يبقيها في نفوس العباد إلا اليد التي أبرأت هذه النفوس، وحنت عليه حنوا يتقاصر عنده حنو الأمهات على الفطيم.

تلك اليد الرءوم التي تشفع الكارثة باللطف، والجزع بالأمن، والفاجعة بالإيمان.

أسلم نفسه لها، واتضحت له الحجرة كما عهدها خالية من الطيوف بريئة من الأخيلة. وانكشفت له تهاويل السقف عن فنها الرفيع الذي طالما بهره إذا ما يمت إليه عيناه.. أهذه الرسوم محجوز عليها هي أيضا.. أنه فن رفيع لا يقدر بمال، ولكن الدائنين لا يرون فيه إلا سقفا لا يكمل البيت بدونه، والبيت محجوز عليه. لا حياة للفن في صراع المال.

دخل إدريس إلى حجرة المكتب.

- فهمي بك عبد الحميد.

ولم ينزل الباشا قدميه عن المكتب ولم يجـزع، وإن كانت بعض الدهشة قد تولته:

- ما له؟
- في الخارج يريد مقابلة سعادتك.
- وصمت الباشا.. ليس من المعقول أن يأتي ليتشـفى والجرح جديد.. إذن.
- دعه يدخل.
- وأنزل الباشا قدميه واستعد للقاء الرجل. فمهما يكـن البيت محجوزا عليه إلا أنه حتى الآن بيته.
- دخل فهمي عبد الحميد، وأسى صادق مرتسم علـى وجهه:
- سعادة الباشا!
- أهلا فهمي.. اقعد.. اقعد أولا.
- سعادة الباشا أنا لا أعرف ماذا أقول لك.

وعجب راشد أن رأى بواكير دموع تطفو إلى عيني الرجل، وكأنها تودع دموعا أخرى سبقتها.. وأصبح الموقف

أكثر من الإنسان، وأوشكت دموع راشد العصية أن تطفر إلا أنه زجرها.. فقد تكون دموع فهمي وفاء لصـداقة قديمـة، واعتذارا عن موقف سابق، أو أخـوة صـمدت فـي وجـه الأحداث. أما دموع راشد فلن تكون إلا ذلة واستكانة وضعفا، ولن يفهم فهمي أنها إنما انهمرت إكبارا للإنسان حين يعلـو على الإنسان.

- لقد أصبح هذا البيت من نصيبي مقابـل ديـن فـي الأوراق مقداره عشرون ألـف جنيـه. هـذه أوراق الرهن اقرأها سعادتك.
- وتريد البيت الآن؟
- أريدك أن تقرأ الأوراق يا سعادة الباشا.

ونظر راشد في الأوراق نظرة سريعة كانت كافيـة لمن هو في مثل خبرته. وقال وهو يرد الأوراق إلى فهمي.

- نعم فعلا.
- هل ينقصها شيء؟
- لا أظن.
- أعد النظر إليها يا سعادة الباشا واقرأها على مهـل. ربما كان ينقصها شيء.

- أعتقد أنها كاملة يا فهمي لا ينقصها شيء.
- سعادتك متأكد؟
- طبعا متأكد.. وأنا على استعداد أن أسلمك..
- سعادة الباشا.. أرجوك تأكد من الأوراق.
- يا أخي إذا كنت تريد أن تتسلم البيت الآن، فأنا على استعداد.
- سعادتك تقصد أن تخرج من بيتك الآن ومعك أسامة والسيدة والدتك المريضة والسيدة حرمك.
- هذا ما تقوله الأوراق وما يقولـه حقـك.. الـرهن حيازي لمجموعة الدائنين. وقد قسمتم الرهن علـى أنفسكم فيما بينكم، وأصبح البيت من نصيبك بموافقة جميع الدائنين.. هذا لاشك فيه.
- وهذه هي أوراق الدين والحيازة يا راشد باشا.
- وفي حركة ثابتة واثقة مزق فهمي الأوراق ثم أعـاد تمزيقها.
- فهمي ماذا فعلت.. أنت بهذا تضيع حقك في الدين؟!

- وما عشرون ألفا عندك؟.. ادفعها حين تشـاء، أولا تدفعها إذا شئت إنما أنا لا أخرج راشد باشا أو أسرته ووالدته من البيت الذي عاشوا فيه عمرهم كله.
- فهمي! أهذا معقول؟
- هذا هو المعقول، فلنختلف ولأحاربـك وتحـاربني، ولكن راشد أدهم لا يخرج من بيته أبدا.
- فهمي! هل هناك كلام يوفيك حقك؟
- حاولت أن تكون السيارة ضمن ديني فلم أستطع.
- لا يهم.. لا يهم شيء.. أنت كما أنـت الآن أمـامي أعز من كل المال الذي فقدت.
- أنا لن أبقى لأسمع هذا الكلام.. السلام عليكم.
- والقهوة؟
- ستصبح شربات حين أرى الوقت مناسبا؟

***

إن للسماء طرقا عجيبة. قد أتصور أن يفعل أي دائن ما فعل فهمي عبد الحميد. لو أن الإنسان عرف السبل التـي تستعملها السماء لأصبح إلها. ولكن السماء تحب أن تـذكره دائما إنه إنسان لا يزيد، وهناك من فوق سبع سماوات رحمة

ترسل حنانها وشعاعها بالطريق الذي تراه مناسبا أو طبيعيا، لا الطريق الذي يتصوره مجرد الإنسان.. وهيهات لمجـرد الإنسان أن يفهم.

كيف يمكن لفهمي عبد الحميد أن يكون ذلك الملاك، وهو هو نفسه الذي ارتكب من الأعمال ما يعف الشيطان عن ارتكابه.

كيف يستطيع الملاك والشيطان أن يعيشا معـا فـي كيان واحد، والذي يسمو إلى ما تصنعه الملائكة هـو نفسـه الذي يتردى إلى ما لا تهوي إليـه الشـياطين.. " فألهمهـا فجورها وتقواها".

فالذي يصنع الخير هو خير من الملائكة؛ لأنه يصنع الخير باختياره لا بالطبيعة المواتية التي لا تعرف الملائكـة غيرها. والذي يتردى إلى فجورها يهوي إلى حضيض أسفل من حضيض الشياطين؛ لأنه هو نفسه كان يستطيع أن يختار الطريق الآخر الذي لا يستطيع أن يختاره الشيطان.. وألهمها فجورها وتقواها. قد يغلب الفجور مرة، وقد تغلـب التقـوى مرة، ويصبح الإنسان تركيبا عجيبا، لا هو شر كله، ولا هو خير كله.. وإنما يتمازجان فيه في غير تنافر، ويصبح كـل

من العنصرين مادة في كيان الإنسان ليظل إلى الأبـد ذلـك اللغز الذي حارت فيه مراحل البشرية على مر التاريخ.

***

قالت خديجة:

- أبيع مجوهراتي.
- هي في البنك باسمي وأغلب الظن أنه حجز عليهـا هي أيضا.
- أكلم أبي.
- أباك؟
- إنه أبي.
- اسمعي هذه المشكلة ملكي أنا، وأنا الذي صـنعتها، وأنا الذي يجب أن أتولاها وحدي.
- لتكن أنت من صـنعتها، ولكـن أنـت رب بيتـي، مسئوليتي عنك قدر مسئوليتك عني.
- لو كان لك مال مستقل لكان الذي تقولينه طبيعيا.
- ولكن أبي مسئول عني.
- سقطت عنه هذه المسئولية منذ تزوجتك.

- العلاقات الإنسانية ليست عقودا تسجل في المحكمة. يغضب أبي أشد الغضب إذا لم أقل له.
- غضبه سيكون أكبر إذا قلت له.
- منك؟
- من نفسه.
- من نفسه؟
- إنه لا يستطيع أن يصنع شيئا.. دخل أبيـك يكـاد لا يكفيه.
- ما هذا الذي تقول؟
- حقيقة أنا أعرفه قبل أن أتزوجك، وتأخرت أنت فـي معرفتها.
- ولكن لا بد أنه سيعرف كل شيء عن حكايتنا.
- أنت طيبة يا خديجة.. هل تظنين أن أحدا في مصـر سيجهل ما حصل لي؟!
- فهو الذي سيكلمني.
- ربما.
- إذن فسيغضب لأنني لم أكلمه.
- أعلم ذلك.

- ماذا أقول له؟
- قولي إنك عرضت علي مساعدته فرفضت ذلك رفضا قاطعا.
- ولكن سيكلمك.
- لا تخافي.. فإن كنت فقدت مالي فإنني لم أفقد لباقتي.

***

- وقالت أمه وهي في فراش مرضها:
- راشد لا تخف.
- أنا غير خائف.
- مصاريف بيتك علي.
- وأنت ما ذنبك؟
- كنت أستطيع أن أعطيك أرضي فتبيعها، ولكني أخاف أن تأكلها ديونك. سأبقي أرضي لأصرف منها على البيت.
- هانم أفندي لا أدري ماذا أقول لك.
- لا تقل شيئا، لن أعيش طويلا، والأفدنة القليلة التي ورثتها عن أبيك ستؤول إليك. ولكنني أريد أن أعيش

ما تعودت أن أعيش لا أسأل أحدا شيئا. سيكون لـك هذا على كل حال.

- إنك طول حياتك تنفق علي وعلى ملبسـي، وكنـت أنفق أنا إيرادي على من يستحقون الصدقة.. وعندي بعد ذلك بقية، وإيـراد الأرض سـيكفي مصـاريف البيت، فلا تحمل هم هذه الناحية ودبر أنت حالك في غير هذا.

***

وقال عثمان باشا فكري:

- لقد أكرمت خديجة منذ تزوجتها وأصبح بينكما الآن أسامة، وهو حفيدي وأنا مسئول عنه وعـن ابنتـي، وسني وتصرفاتك الكريمة مع ابنتي تتـيح لـي أن أكون مسئولا عنك أنت أيضا، فدعني أقدم مساعدتي.
- أنا دائما أعتبرك أخي الأكبر إن لم أعتبرك والـدي، وأنت في مكان عندي، ولكني أحب أن أقوم بنفسـي بهذا العبء.
- أساعدك في أيامه الأولى.

- وأصبحت أمام زوجتي شخصا ضعيفا لا يستطيع أن يواجه الأحداث.
- لقد عشت عمرك غنيا.
- فدعني أجرب أن أكون فقيرا.
- أمرك.
- وقال أسامة:
- بابا ماذا حصل؟
- ماذا حصل؟
- في البيت حاجة غريبة.
- مثل ماذا؟
- لا أعرف.
- هل نقص شيء؟
- السيارة.
- وأنت مالك بالسيارة؟
- أنا فقط لا أراها.
- أصبحت قديمة.
- اشتريت سيارة جديد؟
- ليس الآن.. هل هذا هو كل التغيير؟

- طبعا لا.
- وماذا أيضا؟
- لا أعرف.. ستي ليست كما تعودت أن أراها.
- مريضة.
- إنها مريضة من زمان ولكنها ليست هي.
- وماذا أيضا؟
- وكفاية.
- وماما؟
- لا.. ماما لم تتغير.
- وأنا؟
- أنت؟!.. أنت؟! لا أعرف.
- والخدم؟
- لا أعرف.. يمكن ربما.. نعم.. افتكرت كانوا دائمـا يهزرون معي الآن دائما التكشيرة على وشهم.
- كل هذا رأيته.
- لا أعرف.. تعرف يا بابا ساعات أحس بأشـياء ولا أعرف كيف أقولها.
- مثل ماذا؟

- لو كنت أعرف كنت قلت.. لا أعرف.. فيـه شـيء ولكن ما هو؟.. لا أعرف.
- ستعرف يا أسامة.. سيأتي يوم وتعرف.

***

بدأ حياته الجديدة بداية لم تر مثلها القاهرة ولا أحسب أنها ستراها.. كانت هناك عمليات تجارية صغيرة تعـود أن يتركها ولا يعنى بها ليهتم بعمليات أكبر. عـاد إلـى هـذه العمليات، ولكنه كان يريد أن ينتقل بسرعة.. وكان قد انتوى أمام نفسه ألا يستغني عن أحد من الخدم أبدا؛ فقد استقروا في البيت منذ سنوات طوال، وأصبح من غير الممكن أن يستغني عن أحد منهم. كان هناك شعور يجمعهم أنهم أسـرة واحـدة لعل أحدا منهم لم يفصح للآخر بهذا الشعور، ولكنه راسخ في نفوسهم ربما إلى درجة عميقة وثابتة ومؤكدة، حتى ليصـبح من العبث أن تكون موضوع حديث.

وهكذا بقي عبده خليل سائق السيارة دون أن تكـون هناك سيارة، وسرعان ما نبتت الفكرة في ذهن راشد باشا.

والذين كانوا يعيشون في القاهرة هذه الأيام أصبحوا يرون منظرا عجيبا.

سعادة الباشا يركب موتوسـيكلا لـه مقعـد جانـب يطلقون عليه سيدكار.. يقود الموتوسيكل سائق غاية في أناقة المظهر يلبس البذلة التي كانوا يطلقون عليها بذلـة طلـب، وهي تمتا بسترة مقفل عند الرقبة زرقاء داكنة الزرقة علـى حوافيها قطان أحمر، والبنطلون منتفخ من أعلى تلفه بعد ذلك رقبة طويلة لحذاء جلدي فاخر.. هكذا كان ملبس عبده خليل وهو يقود السيارة الباكار نفس ملبس عبده خليل وهو يقـود الموتوسيكل السيدكار الذي يركب سعادة الباشا فـي مقعـده. حتى إذا أراد الباشا أن ينزل في مكان ما لبعض شأنه، سارع عبده خليل يفتح باب السيدكار في عظمـة ووقـار، وينـزل الباشا في سمته المهيب الذي تعود أن ينزل به من السـيارة الباكار.

والباشا وهو يصنع هذا لا يفكر لحظة أنه يفعل شيئا يدعو إلى الدهشة، وفيم الدهشة؟.. إن الباشا يعتبر السـيارة وسيلة لا غاية والموتوسيكل وسيلة تؤدي الغـرض نفسـه. وراشد باشا برهان الذي كان يركب السيارة الباكار هو نفسه راشد باشا برهان الذي يركب الموتوسيكل السيدكار.

١٦

دق جرس التليفون بمنزل زكريا باشا.

- أنا عبد القادر إبراهيم وكيـل وزارة الخارجيـة يـا معالي الباشا.
- أهلا عبد القادر بك، أهلا وسهلا.
- متى أستطيع أن أرى معاليك؟
- وقتما تشاء.
- في أسرع وقت إذا أذنت سعادتك.
- الآن إذا شئت.
- عشر دقائق أكون عند معاليك.

السن والثقافة والتجارب جعلت زكريا باشا يبدو هادئا وهو ينتظر وكيل الوزارة، ولكنه كان واثقا أن شيئا يتصـل بابنه عدلي في طريقه إليه.. وقد تعود منذ سنوات ألا يتصل

شيء سعيد بابنه عدلي. أبت عليه تجاربه أن يفكر فيما يمكن أن يكون هذا الشيء وجاء وكيل الوزارة.

عدلي يسهر كل يوم إلى الفجر يلعب القمار في جنيف، ولا يكفيه أي مال، بل إن صحته وهو الشاب لم تعد تستطيع أن تتحمل ما يصنعه بها.

مرتبه وإيراده الذي يذهب إليه هناك يقذف به جميعا على مائدة القمار. بل إنه حتى لا يتناول من الطعام ما يقيم أوده. فهو يفضل أن يلعب القمار عن أن يتناول الطعام الذي يحتاج إليه جسمه. فهو لا يهذب إلى الفندق إلا بعد الظهر لينام ساعتين ثم يستأنف. وكل هذا ما كان يحتاج إلى وكيل الوزارة ليأتي به إلى زكريا باشا.

لقد نضب المال من يد عدلي فإذا هو يطلب من الفندق الذي ينزل به أن يصرف له شيكا يقدر بالنقود المصرية بحوالي خمسمائة جنيه. وقد قصد أن يطلب صرف الشيك في يوم سبت؛ حتى تكون البنوك مقفلة في يوم الأحد، ظانا أنه يستطيع أن يكسب فيودع المبلغ في البنك قبل أن يقدمه الفندق.

لم يكسب.

وطرده الفندق، وطالب السفير المصـري بالشـيك وحساب الفندق.

دفع السفير، ولم يشأ أن يخبر الوزير؛ لأنه يعـرف أنه صديق الباشا، وأخيرا وكيل الوزارة.

طبعا دفع الباشا كل ما أخبره به وكيل الوزارة، وما إن ودعه إلى الباب حتى عاد إلى التليفون ملهوفا:

- راوية.
- أفندم سعادة الباشا.
- تعالي حالا.
- وحين جاءت. كم ترسل لك دائرة عدلي كل شهر.

وتسمرت عينا راوية على الباشا، وتقلصت خلجـات وجهها، وحاولت أن تتماسك بكـل مـا يطيـق البشـر أن يتماسكوا، ولكن هيهات لدموع مثلها أن تغيض، لقد طفـرت إلى عينيها سكبا وراء سكب!

- لا عليك يا ابنتي.. لا عليك خذي.
- لا آخذ شيئا يا عمي.. لا يمكن.
- ستأخذين.

- ألا يكفي أنك تربي هالة وأنـ ـك رفضـ ـت أن تأخـ ـذ نصيبك من تركة نينا نعيمة هانم؟!
- هذه أشياء ليس من شأنها أن تسقط واجب زوجك في الإنفاق عليك.
- هذه أخطاؤه وليس من المفروض أن تتحمل أخطاءه.
- ومن يتحمل أخطاء الأبناء إلا آباءهم.
- ألا يكفي ما تحملته أنت من عدلي؟
- أنا لم أتحمل شيئا.
- بعد كل هذا؟
- هذه كلها أخطائي أنا.. ما دمت لم أحسـ ـن تربيتـ ـه، فعلي أن أتحمل كل ما يفعل.
- من قال هذا؟؟ يا عمي الناس طبائع.. وعدلي طبعـ ـه هكذا ولا ذنب لك أنت!
- يا ابنتي أنا لم أقم بواجبي نحو عـ ـدلي.. وأنـ ـا الآن أحاول أن أستدرك الخطأ الذي وقعت فيه.. خذي.
- لا يمكن.
- أنت تعرفين إلى أي حد يحترمني أبوك.
- أعرف.

- لا تضطريني أن أدعوه وأعطيه ما يجب أن تأخذيـه أنت، وقبلت راوية المال. وانصرفت.
- ولكن قصة عدلي لم تتم فصولا.

***

ما هو إلا شهر وبعض شهر حتى جاءت الأنبـاء أن عدلي سقط مريضا بعد هذا الجهد الذي أنهـك بـه جسـمه، واضطر الباشا أن يصحب راوية إلى سويسرا.

وهناك وفي حجرة من فندق فقير التقى الباشا مع ابنه عدلي لأول مرة بعد ما صنعه عدلي تجاه أبيه.

وهناك لم يجد الباشا من ابنه إلا بقية حطام لم يترك القمار منه شيئا.

كان موقف الابن ذليلا حتى لم يحـاول أن يعتـذر، وكان موقف الأب أليما حتى لم يذكر من هذا الشيء الـذي أمامه إلا أنه ابنه وأنه مريض.

سرعان ما عرف الأب وعرفت راويـة أن مـرض الصدر هو ما يعانيه عدلي.

في مصلحة في ليزين على جبل بالقرب من لـوزان استقر عدلي، ودفع الباشا نفقات العلاج، وأعطى لراوية مـا يكفي لفترة أخرى، وسافر إلى القاهرة بالباخرة.

وفي القاهرة استقبلته من راوية برقية.. لقـد مـات عدلي.

***

منذ ذلك اليوم أصبح زكريا إنسانا آخر.. كان يخشى أن يبدي حبه ليحيى ابنه، ويخشى أن يظهر ضـعفه لهالـة حفيدته، فاعتزل عنهما الحياة بعد أن أصـر أن تقـيم معـه زوجة ابنه راوية.

ومنذ ذلك اليوم أصبح زكريا باشا يمثل لابنه وحفيدته شيئا مقدسا لا سبيل إلى الحديث معه، وإنمـا تصـل إليهـا الأوامر منه والنقود وكأنه طيف غير إنساني لا صـلة لـه بالبشرية.

وكان يحيى في تلك السن التي يتشكل فيهما الإنسان ليصبح رجل الغد.

وأما هالة فلاهية يصغر عندها كل شـيء ليصـبح مجرد حدوتة أو أداة تسلية.

لم يكن زكريا يتوقع أن تطول به الحياة حتـى يفقـد عدلي، وأصبح يخاف على ابنه وابنته أن يتعلقا به ثم يخذلهما ويتركهما فينهار صرح في نفسيهما كبير. كان يريد حياته أن تكون على هامش حياتهما. ولـو أن أراد أن يجتمـع بهمـا لأعجزته نفسه، كان موت عدلي بالنسبة إليه في سـنه هـذه نكبة لم يحتملها.

كان يدري أنه لم يحسن تربيته، وكان يدري أنـه لا يصلح لشيء، وكان يدري أن ابنه طعنه أو حاول أن يطعنه بهذه القضية التي رفعها. ولكنه أيضا كان يدري أنـه ظـل لفترة طويلة من حياته ابنه الوحيد. وأن أهميته قد زادت حين أتى له بهالة وحين أتى هو بيحيى. وكان يجعل فـي حيـاة عدلي من بعده أداة أمن تصحبه فـي رحلتـه إلـى الحيـاة الأخرى، ولكنه مات.

ثم هو في لحظة ينهار به هذا الأمن ولا يبقـى مـن عدلي إلا أنه مات.. أما يكفي هذا وسنة الحياة أن يدفن الابن أباه، وويل للآباء أو قل إن شئت ويل للحياة كلها إذا اختلفت هذه السنة فدفن الأب ابنه.

ينسى زكريا كل شيء ولا يذكر إلا أن ابنـه مـات، فتصبح مسالك الحياة أمام عينه مهوشة تافهة لا معنى لها.

لا يختلف عنده طريق عن طريق. بل إنه حتى لـم يعد يريد أن يختار ولا أن يدلي برأي.

هو لا يشارك في السياسة. وهو لا يذهب إلى مكتب المحاماة وهو لا يجد في مجلس الأصدقاء أنسا أو ترفيها. لم يبق من الأصدقاء إلا من يصغرونه. أما أتراب حياته ورفاق طريقه فقد مالوا واحدا بعد الآخر، وأقفرت من حوله الحيـاة التي كانوا يصنعونها معا.

حتى السياسة التي كان من أعلامها اختلفت دروبها، وتغير رجالها، فأصبح لا يفهم عنهم ولا يفهمون عنه. وحتى إذا فهموا فإنه لا يريد أن يدلي برأي.

وكيف يدري زكريا باشا أنه إذا أبدى آراءه في تربية ولده وحفيدته يكون قد قال الرأي الصواب. ومـن يعـرف الصواب والخطأ في عصر هؤلاء. وكيف يستطيع أن يشارك في تربية الأحفاد – فيحيى وإن يكن ابنه خليـقٌ أن يكـون حفيده – وهو لم يوفق في تربية ابنه.

في حجرته زكريا باشا، إن غادرها فساعة أو بعض الساعة، يحس بها أنه حي لم يمت ثم إلى غرفته يعود.

ومن هذه العزلة اتخذت سهير وراوية أداة إرهـاب للطفلين. وعند يحيى أصبح سمت الرجل كما ينبغي أن يكون الرجل هو هذا الباشا المنعزل. هكذا أصبح الأمر عند يحيى. أصبح يعتقد أن الرجل لا يكون رجلا إلا إذا لم ير أحدا ولـم يره أحد، وأصبح يظن أن الرجل العظيم – ومن أعظم مـن أبيه – يجب أن يكون صموتا لا يتكلم.. فإذا تكلـم فكلامـه أمر، وإشارته لا يصحبها إلا الطاعة من الآخـرين. هكـذا صورت له أمه أباه، وهكذا أكد أبوه هـذه الصـورة بوجـه ارتمى عليه الحزن، واحتضنته تجاعيـد السـنين، فأصـبح بمزاج الألم والأيام تكشيرة لا انبساط لها.

ربما استطاعت راوية أن تنجـو بهالـة مـن هـذه الصورة. وهالة على كل حال بطبيعة جنسـها لا تصـبو أن تكون رجلا.. ورجلا موهوبا ولكن راوية خشيت على ابنتها أن يجعلها موت أبيها جانحة إلى الحزن في حياتها، فراحـت تتيح لابنتها كل فرصة للبهجة، ولم تكن تستعمل اسم الجد إلا حين ترى أن هالة تبالغ في طلب البهجة، وكان ذكر اسـمه

مصحوبا بالرغبة التي تريدها الأم، وتلصقها به وهـو فيهـا مظلوم، كافيا أن يرد هالة إلى ما تبتغيه الأم من الاعتدال.

***

كان يحيى في السادسة عشرة حين مات أبوه زكريـا باشا.

وفجأة وجد يحيى نفسه قد انتصب رجلا على رغـم أنفه. فالخدم لا يذكرونه إلا بلفظ البك. هكذا مفردة دون اسم يحيى يسبقها أو صفة الصغير تلحق بها.

أصبح هو البك ليس "بك" وإنما البك.. كاملة خالصة له. فقد أرادت سهير أن تجعل منه رجل الأسرة الجديدة، ولم يكن بد من أن تحيطه بكل هالات التـوقير إذا كانـت سـنه وثقافته لا تستطيعان أن تحيطاه بشيء.

وحين مر بعض الوقت قالت راوية:

- ألا ترين من الأنسب أن أرجع إلى بيتي؟
- لماذا؟
- أن تعرفين أن بيتي مغلق، ومن الطبيعي أن أعـيش فيه مع ابنتي.
- وما الطبيعي في ذلك؟

- كانت هالة مع جدها.. أما الآن.
- شأن عجيب يا راوية. هي الآن مع عمها في القرابة، ومع أخيها في السن، فأي عجيب في ذلك؟
- ربما يحب يحيى أن يعيش وحده.
- اسمعي.. أنا وأنت لم نختلف طوال هـذه السـنوات وأصبحنا كأخوات، وهذا البيت بيتي وبيـت يحيـى معا. وقد تعودت الحياة معك، كما أعتقد أنك تعودت الحياة معي، وليس من الطبيعي أن تعيشـي وحـدك مع هالة وبيت عمها موجود، وإذا كان الباشـا قـد مات، فإننا نستطيع أن نجعل من يحيى رجل البيـت ونعيش معا.. ودعينا لا نعود لهذا الحديث.
- على شرط.
- قبلته.
- أتعرفينه؟
- كنت لا تشاركين في نفقات البيت، والآن تريدين أن تشاركي.
- فهل تقبلين؟
- نعم أقبل.

***

من حسن حظ هالة، ومن حسن حظ يحيى، أو مـن سوء حظه لا أدري أن هالة جاء لها خطيب.

أما أن هذا من حسن حظها فلا شك في ذلـك. فـإن هالة لم تستطع أن تتصور يحيى هو البك. فقد عاش عمـره رفيق الملعب وكانت تسخر سخرية شديدة من جـو التـوقير الذي تشيعه حوله أمه وتشتد السـخرية بهـا إذا رأت أمهـا تشجع هذا التوقير. ولم تكن تحتفظ بسخريتها لنفسها، وإنمـا كانت تفجرها كلمات لا تتحرز أمام من تنفجر. وكثيـرا مـا كان ذلك يحدث أمام الخدم فترتسم على أفواههم بسمات تنال لا شك من الهيبة الصارمة التي ينبغي أن تفرش تحت أقـدام الأمير الصغير.. البك..

وكأن يحيى يجن من سخرية هالـة، وكانـت أمهـا تحاول عبثا أن تردعها.

ولكن هالة مسكينة؛ فما تستطيع أن تتصور يحيى كما تريد السيدتان أن ترسماه؟ دون أن تضحك ضـحكا سـاخرا يتشكل في كثير من الأحيان كلمات لاذعة.

وهكذا لم يكن عجيبا أن يرحب الجميع بذلك العريس الذي تقدم للزواج من هالة.

ولم يكن عجيبا أيضـا أن تكـون التحريـات التـي أجروها عنه سريعة مبتسرة، تتسم بالتعجل أكثر مما تتسـم بالجدية والتعمق.

كل ما عرفوه عنه أنه خريج التجارة العليا، وأن أباه تاجر من أواسط التجار؛ لا هو بالغني الفـاحش الغنـى، ولا بالفقير المدقع.

العريس اسمه جابر عبد البديع الشحات في السـابعة والعشرين من عمره ويعمل مع أبيه في التجارة.

له أخ أصغر منه بسنة واحدة، وقد تخرج في كليـة الحقوق، واسمه حامد.. وحامد يعمل بالأعمال الحرة في غير تجارة أبيه بجانب عمله بالمحاماة. والحقيقة في أمر حامد أن مكتبه ستار لأعماله التجارية. فاسم المحامي ومكتبه يخلقـان حوله جوا يستطيع عمله التجاري أن ينتفع بهما. وهو فعـلا يعمل بالمحاماة، ولكنه يختار قضاياه، ولجابر وحامد بعد ذلك أختان تكبرانهما ومتزوجتان، ولهما أبناء، أما الكبرى فاسمها حميدة، وأما الصغرى فاسمها رشيدة.

وحين جمع الفرح الأسرة في منـزل زكريـا باشـا أحست راوية أنها تعجلت. ولكن هالة لم تفكر في عقد مقارنة بين أسرتها الجديدة وأسرتها التي عاشت فيها، وإنمـا هـي سعيدة أن تتزوج في هذه السن الباكرة، ويعجب بهـا شـاب أنيق مثل جابر. ولم تكن تجربتها تسمح لها بأن تقدر معنـى هذه السلسلة الذهبية الضخمة السميكة المتوحشة التي يعلقهـا أبوه عبد البديع الشحات على صـدره، ولا معنـى الفسـتان الأحمر الذي يسمون أحمره بالأحمر الإنجليزي الذي ترتديه حميدة، ولا معنى الفستان الفستقي اللامع الذي ترتديه رشيدة.

أما راوية وسهير فقد فهمتا تماما أي أسرة ناسـبتها ابنتهما المسكينة هالة. ونظرت كل منهما إلى الأخرى نظرة تقول "لماذا؟" لو أن هالة فقيرة وبحثت عن بعض غنى لكان ذلك مفهوما، ولو أن السن تقدم بها فشارفت الثلاثين، لكـان هناك بعض العذر. لو أنها أحبت جابر وأحبها لأصبح الأمر لا يحتاج إلى تبرير.

ولكن هكذا وبدون أي أسباب، لماذا؟

وفي لحظة واحدة اتجهت العيون منهما إلى البـك.. إلى يحيى.. ودمعت عينا راوية ولم تخف الدمعات. فالأمهات

اللواتي يفقدن أزاوجهن مباح لهن دائما أن يبكين في أفـراح أبنائهن أو بناتهن. ولكن سهير فهمت معنـى الـدموع مـن رواية، ووثقت من فمهما وأطرقـت خجـلا.. لقـد جعلهـا حرصها على أن تجعل ابنها "بيكا" لا تكتنفه السخرية تنصح بتعجيل هذا الزواج دون ريث من تأمل أو بحث، أو تفكير.

كان في الفرح كل أصدقاء راوية وسهير. فلم يكـن عجيبا أن تكون شهيرة سيدة مرموقة في الفرح تذهب وتجيء وتدعو إلى الطعام، وتمر بجانب الخدم وهم يقدمون الحلـوى والشربات. بل لقد تولت هي نفسها تقديم علب الحلوى إلـى المدعوين مع راوية وسهير.

وفي الفرح تعرف شباب بشباب.

تعرف حامد بيحيى وشهيرة وبهيـرة وتعرفـوا بـه ضمن من عرفوهم في ليلتهم تلك.

كان يحيى في فترة هذا الفرح قد اتخذ قرارا خطيرا، وزاده هذا القرار شعورا بالأهمية أن كان هذا الشعور عنـده يحتاج إلى مزيد.

كان يحيى يتعثر في التعليم حتى بلغ الثالثة الثانويـة وهو في التاسعة عشرة من عمره، وكان مازال المدى أمامه

بعيدا. فقد كان لا بد له أن ينال الثقافة ثم التوجهيـة. وأدرك أن هذا أمر بعيد المنال إن لم يكن مستحيلا.

وهنا يقف علماء النفس حائرين؛ فهناك من يقـول: إن جو الأهمية الذي تفجر حول يحيى كان خليقا أن يجعلـه يذاكر ويصبر نفسه على الجهد؛ لأنه لا يليق بالرجل المهـم أن يسقط أمام الخدم والأتباع الذين لا يقولون عنه إلا البك.

وهناك فريق من هؤلاء العلماء يقول إن هذا الشعور بالأهمية مع عدم الإدراك لقيمة الثقافة يجعله يظن أن التعليم شيء ثانوي لا يستحق هذا العناء، وأن البك لا يجوز لـه أن يصنع ما يصنعه عامة التلاميذ، ويذاكر كما يذاكرون، وينجح كم ينجحون.

وهكذا تجد أن علماء النفس هؤلاء كثيرا ما يزيـدون الأمور تعقيدا، وكثيرا ما تنغلق أمامهم المسالك، فلا أحد منهم يعلم إن كان على خطأ أم كان على صواب.

ولكن يحيى لم يفكر -على كل حال- أن يسأل علماء النفس، ولا أن يستخبر كتبهم وهو أيضا – وهو البك – لـم يكن محتاجا أن يستشير أحدا، فحزم أمره، وقر رأيه وأصدر قراره.. لا تعليم..

وقرار البك لا مرد له.. وأدركت أمه أنها لن تستطيع أن تجادله؛ فهي تعلم أن البك الذي صنعته وجعلت من حولها يصنعونه معها لم يعد صالحا للنقاش.

وهكذا أصبح البك بك رسمي، وإن لم تصدر بشـأن رتبته براءة من القصر الملكي. وهو أيضا في غيـر حاجـة إلى براءة القصر الملكي؛ لأن الوهم الذي يحيط بـه ضـخم ضخامة الحقيقة نفسها. فالبراءة بالبكوية لـن تزيـد حقيقـة بكويته ثبوتا لديه أو لدي المجتمع الذي يحيط به.

وهكذا تثور حول يحيى بك مشكلة أعيت الأجيـال، هل الحقيقة هي ما يعتقد الإنسان، أم أنها معنى مجـرد فمـا قيمته إذا لم يجمع عليه الناس؟ ولكن هل كل حقيقـة يجمـع عليها الناس، ودعنا نسأل أيضا هل كل ما يجمع عليه الناس حقيقة؟ وما لنا لا نسأل أيضا وهل أجمع الناس على شيء؟

فإذا قلنا إن هناك غالبية كاثرة تجمع على أمر معين، وأن هناك أقلية لا توافق الإجماع، فإنه لا بد لنا أن نسأل مرة أخرى: هل من الحتم أن تكون أغلبية الناس معتنقة الحقيقـة وأن الأقلية لا قيمة لها؟ ومن يحكم في هذه القضية؟ إن هناك رأيا معروفا أن الحقيقة واحدة لا تتعدد. ولكن هل عرف أحد

هذه الحقيقة الواحدة، ولكن أحدا لا يستطيع أن يعـرف أيـن الحقيقة الخالصة في هذا العدد الكبير من الحقائق. ليس غريبا –إذًا- أن تكون الحقيقة ضائعة بين البشر الذي ركـب مـن عقل وشهوة، ومن فكر وعاطفة، ومن حكمة وهوى. فبـين التيارين المتعارضين تنزوي الحقيقة، ويعتقد كل إنسـان أن الحقيقة التي استقر عليها رأيه هي الحقيقة، فلا بـأس –إذًا- أن معتقد يحيى أنه بك فعلا رغم افتقار رتبته إلـى بـراءة رسمية.

وعرف حامد أن البك في هذا البيت معناها يحيـى، وعرف شهيرة وأعجب كل الإعجاب بابنتها بهيرة.

وكان بين المدعوين أيضا وجـدي، فـإن أردت أن أذكرك به فلا بد أن أنسبه إلى أمه؛ لأنها الجنـاب المجمـع عليه من أبويه أنه ابن نجاة. وهو عند كل من يعرف نجـاة ابن عزت بهادر، وعند القضاء الذي أصدر الحكم في قضيته ابن عبد المحسن باشا وفيق.

وكان وجدي في نضارة الشباب وفي فتوتـه يتمتـع بجمال أخاذ سامق، ويتمتع أيضا بذكاء خارق يعـرف هـو بخلقه الخاص وظروفه التـي أحاطـت بولادتـه ونشـأته،

والقضايا التي وجدها تتلقفه مع مهد الطفولة كيف يسـتعمل هذا الذكاء وأين يستعمله. وهو في إعماله لذكائه هذا يستعمل كل ما لديه من أصل ممزق بين الحقيقة التي يكـاد يلمسـها بالشبه بينه وبين الذي يناديه بعمه عزت وبين الـوهم الـذي أكسبه القضاء حجية الشيء المحكوم فيه. كما يجعله ذكـاؤه يستخدم هذا الجمال الذي لا تستطيع عين أن تعبـره دون أن تقف عنده وتطيل الوقوف.

وكانت خديجة وراشد باشا وأسامة بين المدعوين.

راشد باشا قد عادت إليه ثروته، ولكنه حولهـا إلـى عمارات باسم أسامة مباشرة، وقطع ما بينه وبـين الريـف تماما؛ فباع عزبته التي استخلصها من أيدي الديانة، وابتـاع بثمنها عمارات، فقد أدرك أن وحيده الذي ربي بالقاهرة لـن يستطيع أن يستنبت من الأرض ريعها. كمـا أدرك أن ابـن خديجة التي عاشت عمرها بالقاهرة لن يكون فلاحـا، يفهـم كيف يعامل الأرض. وقد حقق أسامة ظن أبيه فإذا هو طالب يحب العلم، وإذا هو شاب يحب القراءة، وهكذا لم يكن غريبا أن يجد نفسه بين شباب الفرح يقف على جزيرة مستقلة بـه،

وإن كان ذكاؤه قد مكنه أن يشارك الشباب من أمثالـه فـي أرضهم ودنياهم.

جمع الفرح قوما كثيرين وتعارف منهم من لم يكـن من قبل متعارفا، والتقى الأصدقاء يصلون حديثا كان بينهم ثم انقطع، أو يبدءون حديثا هو آخر الأمر إلى انقطاع.

١٧

اتصلت نجاة بشهيرة في التليفون، تحدد بينهما موعد:

- نحن بيننا صداقة عمر..
- ما لزوم هذا الكلام يا نجاة ؟ أنت تعـرفين مكانتـك عندي.
- أريد هذه الصداقة يا نجاة أن تصبح قرابة.
- هي الآن أكثر من قرابة.
- من غير لف أو دوران أريد بهيرة لوجدي.
- والله يا حبيبتي أنا تحت أمرك، ولكن بنات هذه الأيام لهن رأيهن الخاص. وأكذب لو قلت لك إن لي رأيا، أو إن لأبيها رأيا.
- أنا عارفة.. وعارفة أيضا أن جمال وجدي لا يماثله جمال، وأنت عارفة غناه.
- وقالت شهيرة لزوجها سامي حسنين:

- الولد غني وحلو، ولكنه دائما مع النسوان، وسـمعت أنه يلعب القمار.. وحكاية المحكمـة هـذه سـتظل تلاحقه.

ولم يكن سامي في حاجة أن يقول لها: الأمر أمرك، فقد كان يدرك أنها تكلمه لتفكر بصوت مرتفع، وليس لأنهـا تريد رأيه، فهو عندها بلا رأي.

لم تشأ شهيرة أن تخبر ابنتها عن هذه الخطبة. فهـي لا تحتاج إلى رأيها هي أيضا. وإن كانت قد أنبأت بهيرة أن الرأي رأي ابنتها. فما كان هذا منها إلا لتعطي لنفسها فرصة لتفكر.

***

وقالت بهيرة لأمها:

- لماذا لم تقولي لي شيئا حتى الآن؟
- وماذا تريدين أن أقول؟
- ألم يخطبني أحد؟
- إذن قد عرفت؟
- طبعا.
- من قال لك؟

- أنا موافقة على هذا الزواج.
- لن أخبرهم بالموافقة حتى تفكري.
- لقد فكرت.
- وماذا علينا أن ننتظر؟
- ولماذا ننتظر؟
- يتهيأ لي أن هناك خيرا منه.
- الذي أريده أنا هو أحسن زوج لي.
- لا يغرك الجمال.
- لا شيء يغريني.. كل ما في الأمر أنني أريده وهذا يكفي.
- ومع ذلك سأنتظر.
- شأنك.

***

وطلب عبد البديع الشحات موعدا من سامي حسنين:

- توكلنا على الله.
- على الله التوكل.
- مد يدك.
- تحت أمرك.

- نقرأ الفاتحة.
- على ماذا؟
- فاتحة بهيرة بنتك على ابني حامد.
- آه! هكذا؟
- وماذا في هذا.. لقد ناسبنا زكريا باشا حسام الدين:
- ومن غير نسب زكريا باشا أنتم ناس أفاضل يا عبـد البديع بك.
- كثر خيرك فما التردد إذن؟
- أليس لهذه البنت أم؟ وهي أليس لها رأي؟
- ومنذ متى يكون للحريم رأي يا سامي بك.
- نعم.

كانت الكلمة بعيدة كل البعد عن حياة سامي فـأطرق قليلا ثم قال:

- لا بد من رأي الست والبنت يا عبد البديع بك.. الدين يقول هذا.
- أمرك.. ولك أن تسأل عن حامد. محام قد الدنيا.
- وأيضا تاجر واع ويكسب من الهوا.
- ربنا يهيأ الخير إن شاء الله.

***

وذهبت شهيرة إلى خديجة وحكت لها عن العريسين اللذين جاءا في وقت واحد تقريبا لبهيـرة، واسـتطاعت أن تصوغ الحكاية وكأنها تستشيرها، وفهمت خديجة الإشارة.

قالت للبك:

- يحيى أليس من الطبيعي أن تتزوج.
- حين أجد البنت المناسبة.
- عندي.
- من؟
- مال وجمال وأصل.
- أعرفها؟
- كل المعرفة؟
- فمن هي؟
- خمن.
- بهيرة؟
- عجيبة.. كيف عرفتها؟
- أنا لست غبيا.
- لا.. الحكاية وراءها سر.. هل تحبها؟

- اخطبيها لي.

***

ودون أن تستشير شهيرة ابنتها أو زوجهـا أعلنـت الموافقة، وأدركت بهيرة أنه لا سبيل لها أن تعـارض.. وإن كان وجدي قد استطاع أن يبهرها بجماله، ويكلمهـا بضـع مرات في التليفون، فالأمر لم يصل إلى الحب الذي يجعلهـا تقف من أمها الذي يتبعها أبوها موقفا فيه تعنت. وكان إعلان القبول ليحيى يحمل في ذاته إعلان الرفض لوجدي وحامـد معا..

وتم الزواج.

١٨

حين أعلن قانون الإصلاح الزراعي كان راشد باشا قد لقي ربه فلم يتح له أن يشهد نتيجة تصرفه الذي استبدل بالأرض فيه العقارات، ولكن أسامة قرأ الفاتحة على روح أبيه شاكرا له ما صنع، فقد استطاع أن ينجو به من الاستيلاء على أمواله.

أما يحيى فقد كان يملك أرضا كثيرة، وكان قد أنجب ولديه باسل وشهاب، وكان من الطبيعي أن يبحث عن محام ليقوم له بعمل الإقرارات. ولكن قبل أن يبحث كان حامد عبد البديع بين يديه.

- سعادة البك، النسب له حقوق.
- طبعا.
- بمجرد نشر القانون جئت لأقوم عنك بعمل اللازم.

- ألف شكر.. فكرت أن أتصل بك ولكن مسألة الأتعاب جعلتني..
- مسألة ماذا؟
- وهذا ما كنت أخشاه.
- لا تقل هذا الكلام يا سعادة البيك.. عيب.. لا يصح.
- إذا لم تأخذ أتعابك فاسمح لي لن أستطيع أن أوكلك.
- وهل بيننا أتعاب.. إنما بيننا نسب.
- هذا لا يمنع هذا.
- وماذا يقول أخي؟ وماذا تقول بنت أخـي سـعادتك هالة؟
- لن يعرف أحد منهم شيئا.
- على كل حال هذه مسألة نتكلم فيها فيما بعد.
- وهو كذلك.
- كم فدانا عند سعادتك؟
- ما يقرب من ستمائة وستين.
- كل هذا؟
- نعم. فقد اشترى أبي أرضا كثيرة.
- وكم عمارة؟

- هل القانون ذكر شيئا عن العمارات؟
- لم يعد شيء مؤكدا.
- عندي ست عمارات.
- العمارات تكتبها سيادتك باسم باسل وشهاب.
- وأن أكتب لكل منهما خمسين فدانا.
- طبعا ولكن الأرض الزائدة لها عندي ترتيب آخر.
- ماذا؟
- ليس من المعقول أن تسلمهم ثلاثمائة وستين فدانًا.
- وماذا يمكن أن أفعل؟
- القانون أتاح لنا شهرا للبيع.
- نعم.
- أنا – إذا سمحت – سأذهب إلى العزبة وأبيع بقـدر الإمكان لا بأس.
- غدا تكتب لي توكيلا.
- وهو كذلك.
- والباقي بعد البيع سأتصرف في شأنه.
- ماذا؟
- سأتصرف في شأنه.

- ماذا تعني؟
- أعني أنك لن تسلم فدانا واحدا للحكومة.
- ماذا تقول؟
- يحيى بك هل سعادتك محام؟
- لا.
- إذن اتركنا نشوف شغلنا.

***

كان وجدي جالسا في بيته وحوله جماعة عجيبة.. كيف عرفهم؟ ومتى عرفهم.. هذه هي عبقرية وجدي وعبقرية ناهد..

وكانت ناهد فكري تزين الجلسة، ومعها الراقصة الذائعة الصيت سوسن. وما أظنني بحاجة إلى أن أذكر اسم والد سوسن؛ فشهرتها قامت باسمها وحدها دون اسم السيد والدها. وعلى كل حال فاسم أبيها إذا قالته ليكون الاسم الحقيقي. فليس من المعقول أن تقول إن اسم أبيها هو عبد الدايم. وما دامت قد غيرت اسمها الأصلي الذي كان شلبية فقد كان لا بد لها أن تبحث لعبد الدايم عن اسم آخر يضرب إلى التركية أو الأرستقراطية. وعلى كل حال هي في غير

حاجة إلى هذا البحث. والذين يلتفون حولها لا يعنون في قليل أو كثير باسم أبيها. فما دامت بهذا الجمال وهذه الرشاقة، وما دامت تستطيع دائما أن تضحك هذه الضحكة ذات الصـليل، فهي في غير حاجة إلى أب على الإطلاق.

في بيت وجدي الكئوس تدور، حتـى لقـد أصـاب الكئوس نفسها دوار من الخمر أو التنقل.. لا يهم.

وتاف أيضا على المدعوين غابة ينفذ مـن خلالهـا الدخان المخدور، والغابة لا تكف عن الدوران.

يعدها لهم فتى توسط حلقتهم، إن أنعمت فيه النظـر، وأنت محتاج إلى إنعام النظـر، فالـدخان ضـباب كثيـف، والرؤية ليست ميسورة، وما هم في حاجة إلى رؤية ميسورة، ولكن أنت لا بد لك أن تنعم النظر. فإذا فعلت وجدت الفتـى الجالس الذي يعد المخدر هو جابر عبد البديع. أتذكره؟ مـا إخالك لا تذكره.. إنه زوج هالة وهو نفسه أخو حامد.

***

باع حامد من أرض يحيى تسعين فدانا، وكان القانون يبيح للأسرة ثلاثمائة فدان. فكان لا بد أن يستولي الإصـلاح الزراعي على مائتين وسبعين فدانا.

- إذن نسلم الأرض.
- يحيى بك أهذا كلام؟
- وهل هناك كلام آخر؟
- هذا شغلي أنا.
- وهل هناك شغل أيضا فيما يفرضه القانون؟
- القانون صديقي، وأنا أعرف كيف أتصرف معه.
- حتى القانون أصبح صديقك؟!
- مؤكد.
- كيف؟
- من الذي يطبق القانون؟
- القضاة.
- هذا في القضايا العادية. أما في الإصلاح الزراعـي فهناك جهات كثيرة قبل أن نسمع كلمة القضاء هذه.
- آه فهمت!!
- ومن يفهم إذا لم يفهم يحيى بك؟
- إذن نتفق على الأتعاب.
- أنت مصر على تسميتها أتعابا!
- سمها أنت كيف تشاء.

- أحب أن أسميها هداليا؟
- لتكن إذن هداليا.
- كم أهديتني عن الأرض التي بعتها عنك؟
- ثلاثين جنيها عن الفدان؟
- ستكون الهدية في هذه الفدادين....
- وقبل أن يكمل جملته دخلت بهيرة.
- أتعملان..؟
- نعم.
- إذ أترككما؟
- وهل هناك عمل يخفى عليك. تفضلي يا بهيرة هانم؟
- وهو كذلك.
- وقال يحيى:
- لم تقل هدية الفدادين الباقية.
- أقوله لك غدا في التليفون.
- كنت على وشك قولها.
- لم أكن أنوي أن أقول الرقم.
- فماذا كنت تنوي أن تقول؟

- كنت سأقول إننا سنجعلها هدية واحدة لكـل الأرض مرة واحدة.
- لا بأس.
- ولن آخذ شيئا إلا بعد أن تطمئن إلى قبول التصرف من الجهات المختصة.
- موافق.

***

حين دق جرس التليفون ردت بهيرة:

- بهيرة هانم؟
- أنا.
- أنا حامد عبد البديع.
- مرحبا يا أستاذ.
- أن سعيد الحظ جدا.
- كذا.
- وهل في هذا شك؟
- شك كبير!
- لماذا لا قدر الله؟
- بالأمس أنهيت الحديث بمجرد دخولي.

- وهل تهمك هذه الأعمال؟
- أليست أعمال زوجي؟
- أنا تحت أمرك.
- يا أستاذ حامد زوجي لا يخفي عني شيئا أبدا.
- وهل معقول أن شخصا له زوجة مثلك يخفي عنهـا شيئا؟
- أهذا رأيك؟
- هذا جزء من رأيي يا أفندم.
- الجزء الأول.
- لا.. هذا الجزء العشرون والأخير.
- وماذا عن الجزء الأول؟
- الجزء الأول خاص بالجمال والأنوثة.
- كفى كفى !!
- حضرتك التي سألت يا أفندم.
- من معك؟
- وهل معقول أن يكون أحد معي وأنا أتكلم عن هـذه الأجزاء؟
- متى سنراك؟

- أمرك.
- الليلة.
- تحت أمرك.
- يحيى بك موجود؟
- أيهمك وجوده؟
- المهم وجود حضرتك.
- الساعة السادسة اليوم.

١٩

ناهد فكري سيدة عجيبة في المجتمع المصري. إنهـا ليست من طبقة الأمراء. وأبوها ليس وزيرا ولا هو رئـيس وزارة. إنما هو رجل عاش عمره يؤدي عمله كموظف فـي وزارة المالية.

وكان طريقه في الحياة يفرض عليه أن يعرف ذوي الشأن في السياسة والمجتمع. ولكنه هو نفسه لم يكن يحب أن يخوض المجتمع أو يدعي السياسة. وهو رجل موظف. وهو موظف أمين شريف لم يسمع أحد عنه شيئا يشـوب سـمعته بسوء. وزوجته هي ابنة عمه وجدان هانم قرني، وقد كانـت سيدة من خيرة السيدات ليس لها في الحياة إلا زوجها وبيتها وابنتها ناهد وابنه سعيد، وكانت السـيدة لا تتـرك سـجادة الصلاة إلا لتقوم بشئون بيتها، وكان من الطبيعي أن يرسـل الأب ابنه وابنته إلى المدرسة، فقد كان من هذا الجيل الـذي

اعتبر التعليم ضرورة لا غنى عنها للفتى أو الفتاة على السواء.

وأتم سعيد الدراسة واشترى له أبوه سيارة، فإن موارده لم تكن قائمة على مرتب الوظيفة، وإنما كانت الوظيفة لمجرد أن يكون موظفا، فقد كان يجل نفسه أن يكون بلا عمل مهما يكن غناه، هذا الغنى الفاحش الذي تركه له والده.

لقد كان فكري الزيني يملك ثمان عمارات إلى جانب تسع قطع أرض فضاء جميعها صالح للبناء، وكانت قطعة منها لا تقل عن العشرين فدانا، ويصل بعضها إلى خمسين فدانا. ولكن فكري لا يتصور أن تكون وظيفته في الحياة مالكا فقط.

فقد كان يرفض أن يرود المجتمعات، ويرفض كما ذكرت لك أن يعلم بالسياسة. فإذا خلت حياة الغنى من مجتمع أو سياسة أصبحت فراغا لا يطيقه أحد.

لم يكن عجيبا -إذًا- أن يشتري فكري لابنه سعيد سيارة، ولم يكن غريبا أيضا أن يختار سعيد أفخم سيارة في

ذلك الحين، وقد كانت "باكار" وكان لها غطاء يرفعـه عـن نفسه أو يسدله كيفما يعن له.

ولكن فكري لم يقدر أن ابنه حين اشترى السيارة كان قد أعد لنفسه الوسيلة التي يموت بها.

هكذا شاء القدر، ونزلت الفاجعة عليه وعلى زوجته قاصمة توشك أن تخلع جذورهما من الحياة، ولولا أن تعلقـا بالإيمان، ولولا هذا اللطف الخفي الذي تـربطن بـه السـماء الفواجع لكان الجنون أقل ما ينتظر الرجل الطيب وزوجتـه المتوكلة على الله.

وهكذا انفردت ناهد بوالديها، فكانت تصنع كل ما لا تستطيع فتاة في سنها وفي مجتمعها أن تفعله.

الملابس غاية في الفخامة. السيارة دائما مـن آخـر طراز. الزينة يقوم بها أعظم المتخصصين وأدوات الزينـة تأتي من أعظم الأنواع، وإذا لم تسعفها بها القـاهرة، وقـد كانت من أعظم الأسواق العالمية، أسعفتها بها باريس أو لندن أو أي بلد في العالم.

وامتدت صداقات ناهد من كل رواد المجتمع الـذي كانوا حينذاك من بنات وأبناء الأمراء. فإن تواضـعوا فمـن

أبناء وبنات رؤساء الوزارات أو الوزراء أو وكلاء الوزراء، وقد كانوا في هذه الأيام ذوي طنين ويمكن أن يكـون رواد هذه المجتمعات من مجرد الأغنياء، ولكن حتما عليهم حينئـذ أن يكون آباؤهم وأمهاتهم هم أنفسـهم مـن رواد الصـالون يدعون إلى بيوتهم كما يدعوهم الناس، وإلا فلا مكان لهم أو لأولادهم في هذه الأبهاء..

ولم يكن فكري ولا كانت الست وجـدان ليفكـرا أن يرودا هذ الصالونات، ومن المؤكد أن أحدا منهما لـم يكـن يفكر أن يدعو إلى مثل هذه الحفلات.

ولكن العجيب، وهذا جعلني أبدأ هـذا الفصـل، أن السيدة ناهد سيدة عجيبة في المجتمع.

كيف يسمح أبوان لا شأن لهما بصالونات المجتمـع ومباذله لابنتهما أن ترود هذه المجتمعات ولا يمنعاها.

وكي استطاعت هذه الفتاة بمفردها ودون عون مـن دعوات توجهها مثل الدعوات التي تتلقاها أن تفرض نفسـها على المجتمع بهذه القوة وهذا الجبروت.

لا يستطيع المجتمع أن يدعو جميع أعضائه في كـل دعوة.. وإنما هناك دائما نوع من الاختيار، والذي دعي هذه

المرة عند فلان يستطيع فلان آخر ألا يـدعوه فـي المـرة اللاحقة.

إن أي بيت من البيوت التي تصطنع هذه الدعوات لا تستطيع أن تحتمل أكثر من عدد معين يمثل على أحسن تقدير عشر هذا المجتمع، أو واحدا على عشرين منه.

ولكن مهما تكن الدعوات قليلة، ومهما يكـن البيـت صغيرا، فلا بد أن تتصدر الليلة ناهد فكري.

أي سحر فيها؟

إنها جميلة لا شك في ذلك، ولها هذا العطر السحري الذي يجذب العيون والقلوب. فهو عطر ممزوج بجسمه تكون معها، وهي بعد جنين لا تشتريه ولا يستطيع أحد أن يشتريه، فيه هذه الخاصية التي لم يستطع أحد أن يكتشف سرها وإنما هي تأسر في غير عقل وتستولي على المشاعر فـي غيـر منطق. وكل ما عليها من عطور وملابس وما صنعه البشـر بشعرها من تلافيف أو بوجهها من زينة لا قيمة له مع هـذا العصر الذي منحته لها الطبيعة والذي لا يعرف أحد مأتـاه والذي نحمد الله أن أحدا لا يعرف مأتاه، وإلا أصبح الرجال

جميع الرجال عبيدا أو مجانين وأصبحوا جميعا- ولا شك في هذا – عصاة.

ولكن أهذا العطر هو الذي يجعلها تتصدر الحفـلات جميعا.. كيف؟.. إذا قبلنا ذلك في الحفـلات التـي يقيمهـا الرجال فكيف بنا إن نقبله في الحفلات التي يقيمها النسـاء.. إنها هناك مهما يكن جنس الداعي رجلا كان أو كانت امرأة، عجوزين كانا أو كانا من الفتيان..

وهذا السحر فيها تمتاز به اثنتـان أو ثـلاث فتيـا أخريات. وهن أيضا يستقبلن الدعوات. وحين يجتمعن ينشق الحفل عن مباراة في الجمال والأنوثة لا يهم أحدا من الكاسب فيه ومن الخسـران. فالمؤكـد أن المـدعوين جميعـا هـم الكاسبون.

ولكن أولئك الفتيات كثيرا ما تؤجل دعوتهن، وكثيرا ما تخلو منهن الحفلات إلا ناهد.. إنه دائمـا هنـاك.. هـذا العجب..

والمجلات تتابع هذا المجتمع في إصرار ومازالـت تتابعه.. لم تستطع ثورة حطمت كل المعايير والمقاييس والقيم

القديمة أن تحطم أهون ما في هـذا المجتمـع مـن متابعـة المجلات لأخبار الصالونات.

وقد هشمت الثورة من كان يؤم هـذه الصـالونات، ولكنها في نفس الوقت خرجت للصالونات قوما آخرين.

وإن كان المجتمع المهشم قد أدرك معنى الصـالون ومعنى الأبيسون والشينوا، ومعنى الرفق في الغزل، والكلمة تهمس ولا تقذف، واحتساء الخمر بحذر حتى لا يفلت الزمام، إلا قلة هزيلة منهم كانوا مرضى، وإن كان المجتمـع الـذي هشمته الثورة يعرف معنى الموسيقى الحالـة أو الصـاخبة، ويعرف كيف يمسك بأدوات الطعام الفضية أو الكريستوف أو المستجلبة من (شيفيلد) و(مكيبيل أنـدوب)، ويجيلهـا علـى الأطباق السفر أو الليموج فلا تسمع لها إلا همسـا كهمـس المحبين.

فإن المجتمع الجديد يعرف كيـف يشـتري أغلـى الأشياء ويقذف بها في صالوناته لا يفكر في مواءمة بعضها لبعض؛ فهذان كرسيان حديثان غالية في الغلاء موضـوعان إلى جانب أريكة أبيسون! وهذه منضدة من النـوع الحـديث المرتفع الثمن إلى جانب كرسي مرسوم على نمـط لـويس

السادس عشر. والخمر في المجتمع الجديد أنهار، والشاربون يعبون عبا ويعلون وينهلون ولا يحتسون، فهـم يريـدون أن يسكروا لا أن يشربوا، والمجتمع الجديد يخصص حجـرات للمخدر ذي الدخان أو المخدر الذي يبلع، فالسكر عندهم هـو الغاية، وهم يملكون إليه الوسيلة.

والأطباق غالية الثمن، والأدوات ما زالـت فضـية، ولكن إذا مد الطعام نشبت أمامك معركة بين أدوات الطعـام والأطباق.

وعلى الحالين المحلات عندنا تهتم بهـذا المجتمـع. كانت تهتم بالمجتمع الراحل، وهي اليوم تهتم بالمجتمع الذي أخذ مكانه.

وفي أي مجتمع تستطع ناهد فكري لتكون نجمة كـل المجلات، فإذا هي في بعض عام أعظم شهرة من كواكـب السينما جميعا.

وحين أقبل الإصلاح الزراعي كان أبوها قد انتقـل إلى العالم الآخر بعد أن جعل ناهد مالكة لكل ما يملك، وحين أصبح المجتمع الجديد هو المجتمع المتعمد المعترف به، راح

مجتمع ناهد القديم يلملم أذياله ويتخفى في التياع، ويبتعد عن أضواء آلات التصوير، بل عن أضواء الشمس إذا استطاع.

والعجب أن ناهد استطاعت في مقدرة فائقة أن تغرب من المجتمع القديم لتشرق في المجتمع الجديد، وإن كانت في المجتمع شمسه الرفيعة المتألقة التي تنفرد بسمائه.

تلك هي قصة ناهد مع المجتمعين.. ماذا عن ناهد مع المجتمعين.. ماذا عن ناهد في بيت أبيها ذلك الرجل الجـاد وأمها تلك السيدة الودود التي لا تعرف إلا البيت والصلاة.

كان أمر الوالدين عجبا. حاولا بكل ما يملكان مـن جهد أن يقفا بين ابنتهما وبين الطريق الذي اختارته، ولكنهـا كانت كالفرس الجموح، وحين طالت المناقشات بينها وبـين أبويها وأوشكت أن تضيق بها، وجدت وسيلتها من قريب.

كان وجدي موجودا في كل دعوة تلبيها ناهد. وكـان جماله الواضح يجعله دائما ملتقى اهتمام. وكان وجـدي قـد أعد نفسه لهذا المجتمع فعرف كيف يكون سهلا في حديثـه يسير به على سطح الأرض ولا يغوص فـي أعماقهـا، إن دخل في نقاش استطاع أن يقنع كل من يحادثه أنه صـاحب الرأي الحق. وهكذا كان يترك الآراء تشتجر وتتشابك وهـو

يقف منها موقف المؤيد لكل رأى، فقد أدرك من المجتمعـات التي هيأتها أمه أن من لا رأي له أقرب الموجودين إلى قلوب الحاضرين.

ولكل إنسان في الحياة هدف ومتجه، وما كان وجدي ليفكر مطلقا أن يكون صاحب مكانة في الحياة العامـة. وإن كان هذا المجتمع بالذات هو غايته وهدفه حتى شهادة الحقوق التي حصل عليها كان يعتبرها وسيلته إلى هذه المجتمعـات وليست وسيلته – لا قدر الله – إلى قضاء واقفا كـان هـذا القضاء أو كان جالسا.

وحين شب وجدي عن الطوق، وعرف قصة ميلاده، تقبلها في هلع أول الأمر، ثم أمعن النظر فيها، فإذا هو يخرج بها إلى رأي استقر عليه وارتاح له. لقد أعجب بأمـه غايـة الإعجاب، فليس عليها من بأس في رأيه أن تصل بينها وبين أبيه عزت وهو من هو جمالا. لقد رآه حين زحفت الغضون إلى وجهه، لم تستطع أن تعدو على جماله. وحين مات عزت فكر أن يسير في جنازته، ولكنه خشـي أن يتغـامز عليـه المشيعون، فاكتفى بدموع تحدث من عينه في طي الكتمـان، ولم يكن يدري يومذاك لماذا يبكي؛ فأبوة عـزت لـه أبـوة

أساءت إليه أمام الناس، ثم هو لم يشعر منه بحنان. وجمـود الأبوة يجعل الأبناء يكرهون آباءهم أكثـر مـن كـراهيتهم لأعدائهم. فالمفروض أن العدو لا يـرحم، والمفـروض أن الأب رحمان وعطوف وحنون، كله إشفاق وقلب يخفق بابنه، وروح ترفرف حيث يتحرك أبناؤه.

فإذا لم يرحم فقد خرق نواميس البشر، وإذا قسا بغير عدالة فقد قلب واقع الأفلاك. أما إذا جحد ابنه فكـان عنـده هملا لا وجود له. فهو قد مزق أستار البشرية، وانحط إلـى درك الحيوان.

ولكنه بكاه.

كان وجدي -إذًا- يرى أن لا بأس على أمه أن تقيم بينها وبين أبيه عزت صلة. فشأن السيدة المطلقة أن تبحـث عن سند لها في الحياة. وإذا لم يتوافر السند الشـرعي فـإن وجدي يرى أن لا بأس عليها أن تبحـث عـن سـند غيـر شرعي. فإذا كان جميلا فالعذر -إذًا- ممهد لها.

ويرى وجدي أن أمه كانت ذكية حين ألحقت نسـبه إلى عبد المحسن باشا. فهي تختار لابنها.. ومـن حقهـا أن

تختار له.. الأب الأحسن.. ومن أحسن من عبـد المحسـن باشا.. وجعلت الطفل شرعيا أيضا.

وليقل الناس بعد ذلك ما يقولون.. لقد فاز بناء علـى حكم القضاء بأبٍ باشا وبثروة جديرة بالباشـاوات. وهكـذا استطاع وجدي في قدرة لا تتأتى إلا لنوع خاص من البشـر أن يعجب بأمه؛ لأنها ذكية، ويعجب الذي صنعته له المحكمة لأنه باشا، وبأبيه الذي فرضـته عليـه الحقيقـة والطبيعـة وأحاديث الناس؛ لأنه جميل ولأنه قادر على أن يجعل النساء يحببنه. فوجدي في نظر نفسه يجمع المجد من ثلاثة أطراف إن كان أهل المجد. والشاعر الذي تحدث عن أطراف مجـده يجمع المجد من طرفين اثنين على أكثر تقـدير. والغالبيـة العظمى إن كان لهم مجد يتفاخرون به فهو لا يزيـد علـى طرف واحد.

وخاض وجدي المجتمع بهذه الثقـة الهائلـة بنفسـه وبميلاده، وكثيرا ما كان يغبط نفسـه؛ لأن الكثيـرين ممـن يخوضون هذا المجتمع يحتاجون إلى جهد جهيد مـن ثقافـة خاصة، ودربة في التعامل، وممارسة لهذه الحياة، واخـتلاط بالأسرات، وزمن طويل حتى يتحقق لهم آخر الأمر شـهرة

بين أبناء هذه المحافل، أما هو فقد وجد شهرته سـبقته إلـى محافل هذا المجتمع جميعها ولم يكن يضـيق حـين تعرفـه بعض السيدات بأخرى قائلة وجدي ابن نجاة، مقنعا نفسه أن الأم صديقة السيدات، ومن الطبيعي أن ينسب إليها عنـدهن، ولا يريد وجدي أو هو لا يهمه أن يتشكك في السـيدة التـي تقدمه على هذه الصورة أنها إنما تتخاص مـن حيـرة بـين الحقيقة القضائية والحقيقة التي تعرفها هي ويعرفها الجميـع. ويؤكده هذا الشبه بين الابن وبين أبيه الحقيقي قالت له ناهد.

- أظن أنني كبرت وأنت أيضـا علـى هـذا اللـف والدوران؟
- أي لف ودوران؟
- وكبرنا أيضا على الاستعباط!!
- والنتيجة؟
- قل أنت ماذا تريد.
- ما دمنا قد وضعنا شروطا للعبة فيجب علينا أن نلتزم بها جميعا.

- حسنا.. لن ألف معك.. أهي محاولات منك لاجتذابي إليك أم أنت جاد في الغزل وهـذه النظـرات التـي أصبح الجميع يتندر بها؟
- هذا يتوقف على معنى الجدية.
- لا يختلف اثنان في معناها.
- ولكن نحن قد نختلف.
- أمختلفان عن الناس؟
- المؤكد أنني لم أسمع أن مثل هذا الحـديث دار بـين اثنين قبلنا.
- لأنك دائما تدير أحاديث أخرى.
- وأسمع أحاديث أخرى أيضا.
- استطعت في فرح هالة فقط أن تقيم علاقة بينك وبين بهيرة.
- أما زلت تذكرين؟
- أنا لست مثل بهيرة.
- هذا مؤكد.
- أنا أعرف أنك طلبت أن تتزوج بهيرة.
- أمي التي طلبت.

- لم يكن حبا إذا؟
- بداية استلطاف.
- والذي تفعله معي الآن.
- ماذا تريدينه أن يكون؟
- أنا لا أمانع في الزواج.
- وأنا أرحب به.
- على شرط.
- كل الشروط مقبولة.
- أن يعيش كل منا بالطريقة التي تروق له.
- أمعقول أن تقولي هذا؟
- هذا ما سأفعله.
- في استطاعتك أن تفعلينه دون أن تذكريه.
- لا أحب الخداع.
- ربما كنت أحبه.
- لعلك احتجت إليه.
- كل الناس تحتاج إلى بعض الخداع.
- ولكن بعض الشروط تحتاج إلى الخداع الدائم.
- لقد قبلت الشرط.

ولم يتردد فكري في قبول خاطب ابنته رغـم أنـه يعرف كل شيء عن تاريخ حياته، بل إن وجدان هانم رحبت بوجودي. فقد كان الأب والأم كلاهما يخافان كل الخوف ألا تتزوج ابنتهما بعد أن أصبحت حـديث المجـلات وأبـواب المجتمع. وكان فكري بك في أخريات أيامه. وكان يخشى كل الخشية أن يترك ابنته بلا زوج فيزداد سفورها على الحيـاة. وهكذا تم الزواج في سرعة. واستقلت ناهد ببيتها، ولم تعـد رقابة أمها أو أبيها تلاحقها.

وسرعان ما استقرت الحياة بينها وبين وجـدي بـل سرعان ما تفاهما. لم يكن طريقهما متباعدين. كان الطريـق واحدا ولكن كلا منهما كان يسلك الطريق لحسابه الخاص.

لم تمض شهور على الزواج حتى كان فكري الزيني قد لقي ربه، ولم تمض شهور أخرى حتـى صـدر قـانون الإصلاح الزراعي، وشمر وجدي عن ساعد الجد، وشمرت معه ناهد، فإذا بيتهما ملتقى الأربـاب الجـدد، أو أنصـاف الأرباب من الأتباع، واستعملت ناهد كل وسائلها من سـحر الأنوثة وعطر السماء، وتخاضع اللفظ، واختيـار الإشـارة،

ورسم الابتسامة، وافتعال الغضـب، واصـطناع الحفـلات، وصناعة الإبهار.

واستعمل وجدي كل ما حبته به الطبيعة من اصطناع الغباء، وقبول كل الأوضاع، وتوطيد الصداقات مهما يكـن ثمن الصداقة من عرض أو سمعة فما يعنيـه العـرض، ولا قيمة عنده للسمعة، فهو من هو عرضا وسمعة بحكم الميلاد.

لقد كان ثروة أبيـه مـن الأرض الزراعيـة، وقـد استطاع بمواهبه هذه أن يبقي عليها كاملة، لم يتسـلم منهـا الإصلاح الزراعي شيئا، وقد أعان على تلفيق الأمور حامـد عبد البديع.

ومن هذه الأبواب التي تفتحت لحامد على يد وجدي وأخيه جابر الذي كان على صلة قديمـة بـبعض الأربـاب الجدد، استطاع حامد أن ينقذ أرض يحيى، ويتقاضـى ثمنـا لذلك عشرين فدانا من أرض يحيى يصحبها أيضـا عـرض يحيى.

٢٠

لم يكن أسامة يتصور حين حصـل علـى شـهادة الحقوق أن يتجه إلى ما اتجه إليه، فقد بدأ حياته بأن تمـرن في مكتب المحامي الكبير صديق والده مهـران باشـا عبـد الفتاح، وقد استطاع أن يعرف في هذا المكتب الكبير كيـف يكون المحامي كبيرا؛ فأسامة يجيد الفرنسية، وهكـذا كـان يستطيع دائما في كل القضايا أن يرجع إلى أهم المصـادر، وقد علمه مهران باشا كيف يتناول القضايا، ويتعامل معهـا، ويغوص في أدق ما تخفيه أوراقها.

وما هي إلا شهور حتى تبين مهران باشا أن أسـامة يملك موهبة المحاماة. وأدرك أن أسامة يسـتطيع أن يكـون امتدادا لأجيال العباقرة من المحامين أمثال عبد العزيز فهمي ومرقص حنا والهلباوي ووهيب دوس وعلوية ومرعي، إلى

آخر هذه الأسماء التي وطدت دعائم المهنة الخطيرة وأرست أركانها في مصر وفي الشرق العربي.

وقد أدرك أسامة أن علمه باللغة الفرنسية سيمكنه أن يكون محاميا عملاقا في القضايا المدنية؛ فهي التي تحتاج إلى البحث والرجوع إلى المصادر الأصلية للقانون.

وراح أسامة يخطو خطواته الأولى، ولكن قليلا مـا خطا.. فسرعان ما انقلبت موازين المجتمع كلها.. ولم يصبح للقانون المدني مكان، فالقانون المدني يقوم أساسـا علـى أن للمال حرمة، والدولة هي التي تحمي هذا المـال أن يسـتلب بطريق غير مشروع.

فحين تستلب الدولة نفسها هذه الأمـوال، وتصـدر القوانين بالحراسة والمصادرة لاستلابها تسقط حرمة المـال، ويصبح اختطافه والاستيلاء عليه بغير حـق هـو الأصـل، وتصبح حرمته واحترام حق الإنسان فيه اسـتثناء لا يقـاس عليه ولا يتوسع فيه.

وفي ظل هذه الشرائع الجديدة من سقوط الشـرعية ينزوي القانون خزيان ينظر ويتحسر وتـدمي جراحـه ولا ينطق. فالقانون هو الشرعية تاريخا يروي عنه كفتـرة مـن

الزمان كانت ولم تصبح ومرت ولم تعد توجد. وتخلو الحياة من القانون، وتخلو أيضا من العاملين في القانون.

وهكذا كان من الطبيعي أن يبحث أسامة لنفسه عـن عمل جديد، لم يتصور أنه يستطيع أن يتوظف، فقـد تعلـق بالمحاماة وأحبها ورسم مستقبل حياته في توطيد أركانه فـي ميدان القانون.. والقانون المدني بالذات. حين رأى القـانون المدني يحتضر حار به الطريق وأشكلت أمامه المناهج، لـم يعد يدري إلى أي مصير يصوب غايته.

كان قد خلف مهران باشا، وبشاب غني مثل أسامة، وفي الأيام الأولى لاستقلاله بالمكتب بدأ الانهيار القانوني في الحياة المصرية، وأصبح أسامة يتابع القضايا القديمـة فـي المكتب ويقينه يزداد كل يوم أنه لن يجد قضايا جديدة.

فاسم المكتب كبير، ولا يؤمه إلا أصـحاب القضـايا الكبيرة، وهؤلاء زالوا تماما من الحياة المصـرية مضـيعين بين المصادرة والحراسة وباسم الحراسة والمصادرة اغتالت الدولة الغالبية العظمى من أصحاب المال بقانون، فكان شأنها مع هؤلاء شأنا فريدا؛ فالسارق يعاقبه القانون ويسترد منـه المال، أما إذا اغتصب القانون نفسه المال في حماية من قوة

الدولة وسلطانها؛ فإنه حينئذ يصبح اللص أشرف من الدولة، وتصبح السرقة أشرف من القانون، فلم يكن غريبا أن يدرك أسامة أن المكتب إلى إفلاس. وإن كان هناك بعض محـامين صغار يروحون ويجيئون في المحاكم. فـإن هـؤلاء إنمـا يترافعون في قضايا صغيرة، لا تستطيع أن تقترب من بـاب المكتب الكبير.

كان أسامة واثقا أنه لا بد له أن يبحث عـن طريـق آخر، وكان وثوقه هذا يزداد في كل يوم إيقانا.. أيـن -إذًا- الطريق.. فكر أن يكتب لجميل في الكويت، أو لصبحي فـي السعودية لعل واحدا منهما يستطيع أن يجد له عملا هنـاك. فهو لا يطيق البطالة حتى وإن كان موفور المال.. كان فـي ذلك اليوم أوشك أن يصمم على كتابة الخطاب ولكن وكيـل المكتب يدخل إليه.

- زوجة محمدين تطلب أن تراك.
- عم محمدين.
- قالت إنك تعرفها.
- أدخلها فورا.
- وقام أسامة وراء وكيله وفتح باب مكتبه وهو يصيح.

- أهلا أمه مرسيلة.
- أهلا بك يا ابني.
- أين أنت..؟
- في الدنيا.
- تفضلي.

وتدخل السيدة العجوز، ويجلسها أمامه على كرسـي قريب من مكتب، ويجلس أمامها كما يفعل مع كبار الـزوار، إنها زوجة عم محمدين الذي كان مع أبيه وجده، والذي لقفه على كتفيه.

وكان عم محمدين قد مات منذ سنوات، وسأل أسامة زوجته هذه التي يناديها أمه مرسيلة إن كانت تريـد مرتبـا شهريا أم تريد مبلغا واحدا مرة واحدة، ففضلت المبلغ الواحد فأعطاها ألفي جنيه، وطلب إليها أن تقصد إليه في أي لحظة إذا احتاجت إليه، وكانت والدته منذ فترة تطلب إليه أن يسأل عنها. وذهب فعلا إلى البيت الذي كانت تقـيم فوجـدها قـد تركته، ولم يعد يعرف عنوانها فكان فرحه بمجيئها طبيعيـا؛ فقد كان يريد أن يطمئن على أحوالها، وهي في هـذه السـن المتقدمة، كما كان يريد أن يطمئن أمه عليها.

- لقد وقعت من السماء.
- أتلقاك بعيني يا أمه مرسيلة.. أين أنت؟ لقـد ذهبـت إلى..
- سأحكي لك.. حين أخذت منك المبلـغ كـان عمـك محمدين قد اشترى أرضا بحلوان، وهو يعمـل مـع المرحوم والدك، قلت أضع المبلغ فـي بنـاء بيـت يسترني أنا وابني راشد وزوجته.
- راشد تزوج.
- لم يكن أيامها متزوجا، ولكن قلت في نفسي إنه لا بد سيتزوج.
- معقول.
- وتزوج فعلا. واسم النبي حارسه تعلم ميكانيكي.
- سيارات.
- سيارات وكل الماكينات، واستطاع واحد من أصحابه أن يعينه بشركة من شركات الحكومة.
- عظيم.
- أنا أجرت شقة في حلوان لأكون بجانب البيت وهـو يبنى، وراشد تعين.

- والحمد لله أصبحت الحالة ميسورة، وتـزوج راشـد بنت حلال من أربع سنوات، وعنده الآن ولدان؛ علي وحسين.
- باسم الله ما شاء الله..
- تعيش.. ما أدري من يومين إلا وواحد من أصحاب راشد يدخل على علي ويخبرني أنهم قبضـوا علـى راشد.
- ماذا.. لماذا؟
- قال صاحبه إنه كان في مظاهرة.
- مظاهرة.. وهل هناك مظاهرات الآن؟
- يا ابني والله لا أعلم.. قال عن البتـاع الاشـتراكي، وأنه قال في الاجتماع كلاما جعل الرؤساء يزعلون.. المهم الولد محبوس.
- أين؟
- لا أدري.
- كيف؟
- ليلتين الآن لم يأت إلى البيت ولا أعرف له طريقا.
- من الذي قبض عليه؟

- سبحان العالم.
- طيب يا أمه مرسيلة تعالى أنت معي الآن إلى البيت.
- أروح يا ابني، البنت امرأة راشد فتها في البيت حالها ملخبط، ولا يصح أن أتركها وحدها.
- اسمعي.. تعالي معي، وسأرسل السيارة تأتي بزوجة راشد وبعلي وحسين أيضا.
- يخليك.. يطول عمرك.. يعمر بيتك.
- قومي يا أمه مرسيلة.. قومي.. هيا.. نينا ستفرح جدا لما تشوفك.. وأنت أيضا ستفرحين لما تشوفي مراتي نادية وابني راشد وفهمي.
- محفوظ باسم الرحمن الرحيم تعيش الأسـامي.. ولا تدعوني يا سي أسامة.. لقد شلتك علـى كتفـي ولا أحضر فرحك.
- ربنا يعلم.. بحثت عنك بلا فائدة.. على كلِ نصـلح الخطأ اليوم.. هيا بنا.

٢١

الخيانة ليست وليدة منطق، وإنما هي طبيعـة فـي بعض الناس، أو إن شئت الدقة هي طبيعة في أكثر النـاس، مثلما تجد الأمانة طبيعة أيضا عند قلة من الناس.

وقد تعاني المرأة من زوجها ما تعاني، ولكنها مـع ذلك تظل شريفة دون أي منطق يدعو لهذا الشرف إلا أنهـا هي بطبيعتها شريفة، ولا تتصور أن الحياة فيها طريق آخر غير الشرف.

وليس صحيحا أن البنت لأمها كما يقول هذا المثـل السخيف الذي يكفي القدرة على فمها دون أي داع، ودون أن يكون للقدرة أي دخل في الموضوع إلا أن تكون مقدمة دون معنى لنتيجة لا صلة لها بالمقدمة، ثم هي نتيجة خاطئة.

فكثيرا ما عرفت الحياة فتيات شريفات غاية الشرف، وهن من أمهات لا يعرفن الشرف في أي شيء.. وكثيرا، بل

وكثيرا جدا ما أصبحت بنات غير شريفات وهن في ذلك من أمهات كلهن شرف، وهكذا تجد نفسك في غيـر حاجـة أن تكفي القدرة على فمها لتطلع البنت لأمها، كما يقـول هـذا المثل العامي الساذج.

ولكن لا بأس أيضا أن تتعرض البنت لظروف مثـل ظروف تعرضت لها أمها، فتجد البنت نفسـها سـائرة فـي الطريق الذي سبقتها فيها أمها.

ولكن الموقف مع بهيرة ابنة شـهيرة مختلـف كـل الاختلاف، وإن كانت النتائج متشابهة كل التشابه.

فشهيرة خانت زوجها؛ لأن زوجها كان يدعو الناس إلى احتقاره بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، فلـم يكن غريبا -إذًا- أن تبحث شهيرة عن أحضـان تحترمهـا فخانت.

أما بهيرة فزوجها يفرض احترامه على الناس بكـل الوسائل المشروعة وغير المشروعة. أو هـو فـي الواقـع يصطنع الوسائل غير المشروعة في فرض هـذا الاحتـرام. ذلك أنه يطالب بالاحترام بالتكبر لا بالكبرياء، وبالتظـاهر لا بالحقيقة. فهو أجوف بلا علم، ومن أين العلم؟ وبلا تجربـة

ومن أين التجربة؟ وقد وجد نفسه في بواكير الحياة من كبار بكوات المجتمع المصري بغير ثقافة أو علم أو تجربة في الحياة. وكانت البكوية التي صبتها عليه أمه بقوة المال وجبروته لا تتيح له أن يخالط أبناء جيله، ويحيا الحياة الطبيعية التي تجعل الإنسان حين يكبر إنسانا طبيعيا شأنه شأن الآخرين له تجاربهم، وله أيضا أخطاؤهم.

أعتزل يحيى الحياة قابعا بين جدران بكويته البالكرة وتكبره الكاذب فأصبح فراغا؛ ولهذا لم يكن عجيبا أن يقنع بالاحترام الزائف من ظاهر الناس، وإن خالطه الاحتقار، بل وإن خالطته السخرية في أعماقهم.

وبهذا التكبر وبهذا الإرغام على الاحترام الموهوم عامل يحيى الحياة، وعامل أقرب الناس إليه زوجته بهيرة وابنيه باسل وشهاب.

وهكذا راح ثلاثتهم يبدون له الاحترام غاية الاحترام، ويكنون له الاحتقار غاية الاحتقار.

أما الزوجة فهي تحتقره للتكبر السخيف الذي يلازمه؛ فهو دائما منفوخ الصدر، يتكلم وكأنما كلامه وحي

من السماء، ويخاطبها وكأنما يتنازل كل التنـازل أن يمتـد بينهما حديث.

وكم كان سهلا على بهيرة أن تبدي لـه الاحتـرام، وتشبع الغرور العجيب الذي ركب فيه، ثم هـي بعـد ذلـك تصنع ما تشاء لتشعر أنها تنتقم من غروره، وأنهـا قـادرة دائما على تحطيم كبريائه ولو في نفسها. والحب لا يسـتطيع أن يماشي الاحتقار مطلقا. وهكذا أصبح مـن المسـتحيل أن تحب بهيرة زوجها. وإذا انعدم الحب من البيت فكل شـيء غير شريف معقول وطبيعي.

أما ابناه فهما لم ينتبها إلى احتقار كبريائه إلا حـين تقدمت بهما السن، عرفا آباء آخرين لأصدقائهما. وبالمقارنة تبين لهما أن أمر أبيهما عجيب.

لقد وجدا الآباء الآخرين يحبون أبناءهم، ويبدون هذا الحب في أمور شتى، قد يبدو منهما الحب في كلمة إشـفاق، أو حتى في كلمة تأنيب وأنانية، أو قد يبدو في منحة ماليـة، أو قد يبدو في اهتمام بدراسة أو إشفاق أو مرض. أما أبوهما فلا يبدي لأي منهما أية عاطفة، إنه يحبهما -لا شك- لكنـه بصلفه وتكبره يختزن حبه ويضن به أن يظهر. إنه يسـتكبر

أن يبين منه شيئًا. لعله كان ينتقم لنفسه أن أباه لم يظهر لـه حبه منذ بدأ هو يدرك الأشياء. أو لعله كان يظن أن الأجـدر بالأب ألا يظهر منه حب. فما دام أبوه قد صنع هذا، فهذا - إذًا- هو المثل الأعلى.

أما حب أمه له وتفخيمها لشأنه فهذا أمر مفـروض؛ لأنه يرى نفسه فوق البشر، وأمه لم تزد علـى أن اعترفـت بتفوقه وسموقه، وهو بعد إذا سأل نفسه فيم هـذا التفـوق أو ذاك السموق؟ سارعت إليه نفسه بالكثير من توافـه الأمـور التي تجعله يتأكد أنه صنف فوق البشر، وأنه إنسـان يسـمو على الإنسانية.

وهكذا شب باسل وشهاب في منزل قـاتم، الأم فيـه تبدو تابعة للأب، وهي في حقيقة الأمر الشخصية المتبوعة لا التابعة؛ لأنها استطاعت في مهارة أن تجعل زوجها يصنع ما تشاء، أن تصنع ببعض كلمات بسيطة من إشباع الغرور، ثم هي بعد ذلك تسحبه خلفها كيفما تريد. ويسير الأهبل خلفهـا وهو يظن نفسه يقودها، وينفذ كل ما تشاء وهو يظن أنها هي التي تنفذ كل ما يشاء، والابنان يكبران ويدركان هذه الحقيقة، فتنقلب موازين الحياة عندهما، ويكرهان أباهما لأنهما لم يريا

منه شيئا يستحق الحب، ويعجبان من أمهما؛ لأنها جعلت من أبيهما هذا المسخ الشائه، وحين توثقت صلة الأب والأم بحامد عبد البديع، وجد باسل وشهاب في حامد شخصية كريهة.

وربما كانت هذا الكراهية لأنه دخل البيت الذي لم يتعود أن يستقيم أحدا، فقد كانت الأم تريد أن تستولي على الزوج، وكان الناس بطبعهم ينفرون من الزوج. وهكذا كان البيت مقفل الأبواب دون الآخرين. لو لم يكن في البيت مع الأب والأم سهير أم يحيى لكانت حياة الطفلين في البيت جحيما؛ فالأم مشغولة بخططها المشروعة وغير المشروعة، والأب مشغول بغروره، ولا أحد يسكب على الطفلين حنانا إلا سهير، وربما أحست سهير أنها هي التي جعلت ابنها موسوما بهذا الجفاء والغرور، وكانت تعزي نفسها أنها لم تكن تتصور أن يتمادى فيه الغرور إلى هذا الحد، ولكن تلك هي مصيبة المشاعر في نفوس الناس.. فإنها -قبيحة كانت أو حميدة- لا تعرف أين ينبغي لها أن تقف. وهكذا تصبح المشاعر القبيحة بالغة القبح، وتنقلب المشاعر الحميدة إلى

شيء يدعو إلى الضجر أحيانا، أو السخف أو الملالة فتنقلب في أحيان كثيرة إلى شيء كريه هي الأخرى.

وحين ماتت سهير كان الطفلان يشبان إلى بـ واكير المراهقة، وانقطع عنهما ذلك المنهل من الحنان في وقت كانا في أشد الحاجة إليه.

وحينئذ دخل إلى حياتهما حامد. وأحسا نحوه بـ ذلك المقت وإن لم يدريا لذلك سببا. وأغلب الأمر أن السبب كان في داخلهما، ولكن حامدا استطاع في مهارة فائقة أن يقتـ رب منهما. وقد كانت السبل مهيأة له من قريب.

لقد عرف كيف يعاملهما كرجلين، وراح يصـ حبهما معه إلى مزارع أبيهما كلما ذهب لعمل في مزارع أبيهما أو في مزرعته هو بعد أن أصبح مالكا لعشرين فدانا هناك.

وعرف أيضا كيف يكون واسطة لهما عند أبيهمـ ا، فاشترى كل منهما سيارة وهو يدخل إلى الجامعة.

وأصبح حامد قريبا كل القـ رب إلـ ى قلـ ب باسـ ل وشهاب، ولم يكن ذلك غريبا؛ فقد كان هو الإنسـ ان الوحيـ د الذي يدخل البيت دخول الأقارب. وقد اسـ تطاعت معاملـ ة حامد هذه أن تفتح عين الأم على تلك الهوة التي تفصل بـ ين

الوالدين وأبيهما، بل إنها فتحت عينيها المروعتين على تلـك الهوة بينها هي وبين ولديها.

وهكذا راحت تتقرب إليهما، وتعمل على استعادتهما بكل ما تملك من قوة، ولكنها حرصت كل الحرص أن تكون مصادر هذه السعادة بعيدة عن الأب. فهي لـم تكـن تريـد للوالدين أن يحبا أباهما؛ فهي حريصـة أن يـدرك الأب أن أحدا لا يحبه في هذا الوجود إلا هي.

وكان الوالدان يحسان بحنوها، ويحسان أيضا بهـذا الحنو ينقلب إلى قساوة طاحنة كلما اقترب واحد منهما إلـى ساحة الأب.

***

كان الوقت شتاء. وكان شهاب في حجرته الخاصـة يشاهد التليفزيون الذي أحضرته له أمه في عيد ميلاده، ولـم يكن معه باسل. ولم يكن ذلك عن جفاء، فقد كانـت العلاقـة بين الأخوين صداقة صحيحة فرضتها عليهما طبيعة الحيـاة في بيت أبيهما أو قصر أبيهما إذا شئت. ولكن باسلاً كان قد اختار أن يتجه إلى الهندسة حين اختار شهاب أن يتجه إلـى

الحقوق، فإن الصداقة بينهما لم تستطع أن توحد طريقهما في الحياة.

وكان لكل منهما حجرته في البيـت، وكانـت هـذه الحجرة مجهزة بكل ما تصبو إليه نفس شاب. فلكل مكتبتـه الخاصة، ولكل جهاز التليفزيون الخاص، وجهـاز الراديـو الخاص، فلم يكن غريبا أن يفترق الأخـوان فـي السـاعات الأولى من الليل ليصنع كل منهما في حجرته ما يحلو له.

كان التليفزيون في تلك الليلة يعرض فيلمـا أجنبيـا، وكان شهاب مستغرقا في مشاهدته بعيدا عن واقع الحياة كل البعد.

وانتهى الفيلم، وانتهى الإرسال أيضا، وقـام شـهاب إلى الباب ونظر إلى غرفة أخيه فوجد أنوارها مطفـأة. فقـد كان يحس أن النوم بعيد عنه. خاب أمله في السمر مع أخيه، وأقفل الباب وعاد إلى مكتبته فوجد كتابا كان قد اشتراه ولـم يفتحه وراح ينظر في صفحاته. الفكر الماركسي والإسلامي. وكان عنوان الكتاب هو الذي أغراه بالشراء؛ فقد كان يحـس كأبناء جيله أن النفاق من حوله يمكن أن يقلب جميـع القـيم والموازين، ولم يستبعد أن يجد منافقا يزعم أن الإسلام يبارك

الماركسية، وكان هذا النفاق هو الحـديث الـذي لا تنقطـع مصادره كلما اجتمع شباب. واعتقد شهاب أن هـذا الكتـاب سيمده بمادة لا تنفد عن سيطرة النفاق المطلقة علـى الحيـاة المصرية، بل على الدين أيضا.

أعاد الكتاب إلى المكتبة، فقد كان في نشوة لا تقبـل أن تواجه هذا الانحطاط. بحسب الإنسان المصري أن يواجه النفاق في الصحف وفي الحياة؛ لأن الإنسان لا بد له أن يقرأ الصحف، وأن يعيش الحياة. فإذا خلا إلى نفسه، وأحس بنوع من النشوة فينبغي له أن يحاول نسيان الصحف والحياة العامة وما يسودهما من نفاق، وإلا أصبح شخصا مولعا بتعذيب ذاته دون مبرر.

بحث عن رواية لكاتب يحترمه، ووجدها ووجد فيها ما تصبو إليه نفسه من انطلاق. واستلقى على السرير وبـدأ يقرأ.. لم ترق له بداية الرواية. أقفلها وأطفأ نـور السـرير، وترك نفسه ترود ما يحلو لها من وديان الخيال أو الحقيقـة، أو هما معا متمازجان تتماوج المعـالم منهمـا متناغمـة أو متنافرة، وهو ملق نفسه إلى الدفاع لا يكبح جماح الخيال، ولا يهتم بحقائق الواقع، ولم يكن يدري أطال به الوقت أم لم يطل

حتى سمع همسا وخطوات.. وعجب، فإن لكل حجـرة مـن حجرات القصر حمامها الخاص، وليس هناك ما يدعو إلـى صوت في الليل أبدا.

قام إلى الباب وفتحه في غير حذر، وفـي اللحظـة نفسها سمع صوت باب يقفل ثم رأى شخصا ينـزل السـلم المفروش بالبساط السميك، وعلى ضوء القمـر الـذي ينفـذ كسهم القدر من شباك السلم رأى وجه حامد، هم أن يلحق به، ولكن قدميه تسمرتا، وحين استطاع أن يجرهما كان حامد قد خرج من الباب الرئيسي، ذهب إلى حجرة أبيه وفتح البـاب ولم يفكر.

- بابا.
- وقام الأب مفزوعا.. هذه هي المرة الأولى في حياته التي يتجرأ فيها أحد أن يفتح عليـه البـاب دون إذن سابق.
- من.. ماذا.. من؟
- هل أنت نائم؟
- هذا هو الطبيعي في ساعة مثل هذه؟
- فماذا كان حامد يفعل هنا؟

- من؟
- حامد!
- حامد من؟
- حامد الذي لا يدخل بيتنا غيره.
- أجننت؟
- يا ليتني جننت!
- وجاءت الأم:
- ماذا؟
- اسمعي ما يقول ابنك.
- حامد نزل الآن من هنا.
- من؟!
- كنت أظنه يعمل مع أبي، أو أنا على الأقل تمنيت أن أجده يعمل مع أبي، ولكن أبي نائم.
- أي امرأة غير بهيرة كان يمكن أن تنهـار، ولكـن بهيرة شيء آخر.. من المؤكد أنها طبيعة أخرى غير طبيعة البشر.
- اسم الله عليك يا شهاب! مالك يا ابني؟
- وراح تجس جبهته.

- آه قل هذا.
- ماذا؟
- الولد نار.. ضع يدك يا يحيى.
- ووضع يحيى يده والعجيب العجيب أنه قال:
- فعلا.. فعلا عنده حمى.
- تعال يا شهاب استند علي.
- وفغر شهاب فمه ولم يستند على أمه، وإنما اسـتندت هي عليه وسحبته، ولكن من ينظر إليهما يخيل إليـه أنه هو الذي يسحبها، وذهبت به إلى حجرته، وقبـل أن تدخلها سمعت باب حجرة زوجها وهو يقفل عليه، ودخلت مع شهاب إلى حجرته وأغلقت الباب وأرادت أن تلقي به إلى الفراش، ولكنه كان قـد آفـاق مـن ذهوله.
- ماما! ماذا تفعلين؟
- تنام وتستريح وحبة أسبرين تصبح بكرة في أحسـن صحة.
- ماما! كيف استطعت أن تقنعيه أنني محموم؟
- لأنك محموم فعلا.

- ماما!!!
- انتظر قليلا حتى أحضر لك الأسبرين وبعض الثلج.
- اخرجي من هنا.
- ماذا تقول؟
- اخرجي حال قبل أن أعمل ما أريد أن أعمله..
- شهاب.
- اخرجي..
- وأمام نظراته القاتلة خرجت بهيرة.

***

مسكين يحيى.. لم يكن ما قاله ابنه جديدا عليه.. كان يعرفه.. وفكر كثيرا.. كيف يمكن أن يعالج الموقف.. أيطلقها فتصبح الحقيقة مدموغة بورقة الطـلاق الرسـمية.. وهـل تحتمل كبرياؤه هذا.. أيكلمها.. وتعرف أنه يعرف.. سـكت واحتمل وكان كل أمله ألا يعرف أحد آخر.

واليوم عرف شهاب.. ماذا سيفعل شهاب؟

استطاع هذا السؤال البسيط أن يبقي يحيـى مؤرقـا حتى الصباح.

***

لم يقل شهاب شيئا لأبيه، ولكن العبء كان أكبر من أن يحتمله وحده. قال لأخيه.. وارتمي الأخوان في دوامة قاتلة من الخزي والشعور بالمهانة.

- أبلغ تأثيرهما عليه إلى هذا الحد؟
- اسمع! إن أبي يعرف.
- ماذا تقول؟
- لا يمكن، لابد أنه يعرف.
- على كل حال إن لم يكن عارفا فقد عرفته أنا، ورفض أن يعرف.
- شهاب! ماذا ستفعل؟
- لا نعرف.
- كيف سننظر إلى أم عاهر، وأب ديوث، وصديق خائن؟
- نحن الآن لا نستطيع أن نفكر.
- لا بد أن نفكر.. ماذا سنفعل؟
- نطلب منهما أن نعيش في بيت وحدنا.
- ربما يرفضان.

- لا تتكلم عنهما.. تكلم عنها وحدها، إنها تفعـل مـا تريد.. هو لا شيء.. بكل صـمته المهيـب وبكـل عظمته المتجهمة هو لا شيء.
- إذن سترفض.
- لا تستطيع أن ترفض لنا شيئا الآن.
- لماذا؟
- بعد الذي رأيته.
- إنها متأكدة أنك لن تقول لأحد.
- فعلا. ولكن لماذا ترفض؟
- بماذا تبرر خروجنا من القصر؟
- إذن لا يدخل حامد هذا بيتنا.
- ولا هذا.. الظاهر أنك لا تعرف قيمة حامـد.. إنـه صديق الحكام اليوم. وهو الذي يحمي بيتنا أن يؤخذ، وحمى أبي أن توضع عليه الحراسة.
- حراسة.. أيقبل هذا الوضع خوفا من الحراسة؟
- لا تبالغ في ظلمه. ربما قبله حتى لا يعرفه أحد.
- اسمع! لا بد أن نجد حلا.. لن نستطيع العيش في هذا البيت، بل لن نستطيع العيش في مصر كلها.

- وجدتها.
- ماذا؟
- نسافر إلى الخارج.
- نهرب؟!
- نهرب.
- ولكن الحقيقة التي نعرفها أنستطيع أن نتركها هنا؟!
- هناك دنيا أخرى.
- ولكنها لن تستطيع أن تبتلع الحقيقة التي نعرفها.
- على كل حال هذا خير من أن نرى هؤلاء الناس.
- أي شيء خير من أن نرى هؤلاء الناس!
- إلى أين نسافر؟
- إلى فرنسا.
- ولماذا فرنسا؟ نسافر إلى إنجلترا.
- أولا لأننا نتقن الفرنسية.
- وهذا سبب يجعلنا نسافر إلى إنجلترا؛ حتى نتقن الإنجليزية أيضا.
- الحقوق دراستها في فرنسا، والهندسة أيضا. أما في إنجلترا فستكون دراسة الهندسة فقط هي الممكنة.

فالقانون الإنجليزي بعيد كـل البعـد عـن القـانون المصري.

- لولا الظروف التي نمر بها، لكنت تركتك تسافر إلى فرنسا، وسافرت أنا إلى إنجلترا، أما الآن فلا بـد أن نكون معا دائما.
- ومسألة اللغة بسيطة يمكن أن نقضي الإجازة الصيفية كلها في إنجلترا لدراسة اللغة.
- فكرة.

وسافر الأخوان وتركا القصر العظـيم يضـم بـين أنحائه تكبره وخسته وجراحه وخيانته. ولم يقدرا.. وكيـف لهما أن يقدرا أن القلب المتكبر الكسير لذلك الرجـل الـذي استطاعا أن يكرهاه انصدع حطامه بسفرهما صدعا المـوت أهون منه، ولكن طول التكبر منه عـوده تلـبس الكبريـاء فانحنى على صدوع قلبه الذي أمسى شظايا.. وصمت.

٢٢

لا يستطيع أحد أن يقـدر أثـر الروايـة المقـروءة المعروضة على مسرح أو شاشة السـينما أو التليفزيـون أو المذاعة -التقدير الصحيح.

فإن هذه الروايات أفسدت حياة الناس ونغصت عليهم عيشتهم تنغيصا فريدا، حتى لا يجرؤ شيء آخر أن يسـابقها في هذا المضمار.

فقد ظلت هذه الأعمال التي نطلق عليها أعمالا فنيـة ترسم البيت السعيد رسما غاية في السذاجة والعبط؛ فالزوجة تطعم زوجها بيدها، وتأتي له بالحذاء وتتولى شئون ملابسه، وتحاول دائما أن تضحك معه، ولا تطلعه على شيء يكدرها أبدا حتى لا يمتد الكدر إليه، وهي طبعا تطيع أوامره مهمـا تكن هذه الأوامر سخيفة. وتحرص هذه الأعمـال الفنيـة أن تجعل حياة الزوجين جميعها على هذه الوتيرة الواحدة التـي

يتخيلها الكتاب السذج سعادة لا تـدانيها سـعادة، وهنـاء لا يماثلها هناء.

وأغلب الأمر أن هؤلاء الكتاب يلقون من زوجـاتهم عنتا ورهقا يجعلهم يهربون من واقع حياتهم النكد إلى دنيـا يخلقونها بأحلامهم وأخيلتهم، وهكذا ليس بـدعا أن تصـبح دنياهم تلك التي يصطنعونها دنيا مهبولـة تفـيض سـخافة وعبطا.

ولو وقف الأمر عند هذا لأصبح مقبولا. وأي ضير أن يهرب كاتب أو أي شخص من واقع مرير إلى حلم وهمي سعيد، ما دام بهذا يقر عينًا ويسعد.

ولكن الكارثة الكبـرى أن المنتجـين والمخـرجين يأخذون الأمر مأخذ الجد، ويعرضون هذه الأعمـال علـى الناس.

وهكذا تقولب الحب في حياتنـا فـي هـذا القالـب المضحك، فالزوجة التي لا تطعم زوجها بيدها، ولا تطيع كل سخافاته، ولا تأتي له بالحذاء أو النعل، ولا تطبخ له كل مـا تهفو إليه نفسه، تصبح عند الأزواج الـذين شـاهدوا هـذه الأعمال أو قرءوها امرأة لا تعاشر، وهي في عرفهم تكرههم

ولا تحبهم. ومن الزوجات من صدقت هذه الصورة وحاولت أن تنفذها في أيام زواجها الأولى. ولكن قليلا تنقلب حياة الزوج إلى جحيم، وليس هذا منه بعجيب؛ فقد رسمت له الأعمال التي رآها الجنة بهذه المعالم المضحكة. فحين يصطدم بغيرها يصبح من الطبيعي أن يرى حياته جحيما. فنقص أي معلم من معالم هذه الجنة الفنية هو عنده جحيم. وويل للزوجين إذا كانا تحابا قبل الزواج؛ فإن كلا منهما سيتوقع من الآخر أن يقتل نفسه وهو سعيد ليقدم لحبه كل ما يمكن أن يخطر ببال هذا الحب. حتى إذا تم الزواج، وعاد كل من الزوجين إلى طبيعة البشر، انكشفت الحقيقة الرهيبة، أن الرجل إنسان بشر، وأن المرأة إنسانة بشر، وتصطرع الحياة على أنغام نفير الحروب بعد أن كانت ساجية بين المحبين على أنغام موسيقى الملائكة.

وفي أتون هذه الأوهام تحطم كثير من حب كان صادقا، ولكنه كان مجنونا ودمرت زيجات كان يمكن أن يفوح منها عبير يانع عن أيام مخضلة بندى الحنان والمودة، ولكنها جهلت الواقع ولم تستطع الأيام أن تنقلب عندها إلى أحلام وأوهام ورؤى.

ولكن أسامة كان محصنا ضد الأوهام، فلو أن الحياة سارت بأبيه رخاء كلها، ولو أنه ترك لأمه وحدها لواجه في كل متجه من حياته ذلك الحلم الباسم المستبشر الذي ينقل إلى واقع كشر متجهم ذي أنياب ونصال ومدى.

لقد صاحبت نمو أسامة تلك الأزمة التي تعرض لها أبوه، ووعي أباه وهو يركب الموتوسيكل (السيدكار) وهو ما يزال أمه وهي تعذر عن عدم قبول الدعوات حتى لا تصبح مضطرة أن تردها بمثلها، ورأى بيته والطعام فيـه معـدود بقدر الأشخاص بعد أن كان دائما موفورا لا يحصيه حجمـا ولا عددا، حتى لقد كان الخدم يدعون من يشاءون من خـدم الجيران. ورأى أمه تمكث السنة بأكملهـا لا تـدخل بيتهـا خياطة، ورأى أباه لا يفكر في شراء قمـاش جديـد لنفسـه سنوات، ولكنه أيضا يذكر أن ملابسه هو دائما كانت تتجدد، فلم تعد على مظهره أشارة من ضيق يد، وأدرك كيف كـان أبواه يجتنبانه دائما أن يحس بما يمران به. وحسب الجانبـان أن ابنهما لم يشعر بشيء وحنا هو عليهما فلم يشعرهما أنـه أحس بشيء.

ومرت بهم هذه الأيام النكدة الماجدة، واستطاع أسامة بضربة حظ أفلس فيها أبوه أن يصبح هو من أغنى الناس نفسا، واستطاع أن يعرف أن الحياة التي تعطي تستطيع أن تمنع، وأن الإنسان إذا لم يعرف من الحياة حالتيها صار فيها هشا هينا جاهلا أو أحمق تصرعه أي ريح من رياح الحياة.

ورياح الرخاء والغنى والدعة والهناء تحمل في طواياها نفس الأخطار التي تحملها رياح الفقر والحاجة والعوز والشقاء.

وإذا كان الإنسان يحتاج أن يكون قويا ليواجه الحياة وهي تطحن وتفترس بمخالب الفقر، فهو محتاج أن يكون أكثر قوة ليواجه الحياة وهي تبتلع وتمحو من الإنسان إنسانيته حين تفرش الذهب والماس تحت الأقدام.

استطاعت هذه الفترة النكدة أن تجعل من أسامة إنسانا يعرف تقلبات الحياة، الأمر الذي لم يستطع المسكين يحيى أن يعرفه. فلو كان يحيى قويا في لقاء الغنى لما انهدمت به الحياة، ولما تصدعت جوانب نفسه ولما خلت الحياة عنده من كل معنى للحياة.

في هذه الأيام النكدة التي شهدها قصر راشـد باشـا كانت أسرة فهمي عبد الحميد من الأسرات النادرة التي تأتي للقصر أغلب أيام الأسبوع. وتوطدت علائق الصـداقة بـين خديجة وبين نعمات زوجة فهمي.. وفي فناء القصر لعبـت جميلة مع أسامة. كانت تصغره بعام وبعض عام، ولكنه لـم يكن رآها قبل أن تصبح أمها صديقة لأمه.

لم يكن حبا ذلك الذي نما بينهما، وإنما كأن ألفة وكان يأنس إليها، وكان يخيل له أنها تأنس إليه. ولم يكـن يـدري يومذاك شيئًا عن الصلات التي تجمع بين أبيها وأبيه، ومـا كان يستطيع أن يعي هذه الصلات ولا أن يفهمها.. وكيـف لمثل من كان في سنه أن يفهم هذه الحرب وهذا العداء، ثـم هذا الحب وذلك الإيثار، وكيف يستطيع أن يعي في براءتـه الإنسان يسفل إلى هذه الخسة، ثم يعلو هو نفسه إلـى هـذه السموة.

لم يكن يدري شيئا وإنما كان يأنس إلى جميلة وكان يألفها. وكان يحب أن تأتي ويحب أن يلعب معها طفلين، ثـم أصبح يحب أن يحكي ما يجري له في المدرسة، ثم أصـبح يحب حين باكرته الرجولة، ونهدت هي إلـى الأنوثـة -أن

يحادثها عن كل شيء ويستمع منها إلى كل شيء.. وكانـت تحس أن ما يقوله لها لا يقوله لسواها، وكانت تعرف أن مـا تقوله هي له لا تقوله لسواه على براءة ما يقول وما تقول.

وحين تزوجا كانت بينهما هذه الألفة الحنـون التـي تكون بين الزوجين، ولم تكن الناحية المالية تشكل لهما أيـة عقبة، فقد استعاد راشد ثروته وكتبها جميعا باسم أسامة، ولو أن هذا لم يكن يعني شيئا بالنسبة لأسامة في حياة أبيه، فقـد كان راشد هو الذي يتصرف في كل دخله.

وقد تزوج أسامة وراشد ما زال على قيـد الحيـاة، وكان راشد سعيدا بهذه الزيجة أشد السعادة كما سعدت بهـا أيضا خديجة، وحين استقر الزوجـان الصـغيران بـالمنزل تنازلت خديجة عن سيادة البيت، وجعلت لجميلة اليد الطولى والوحيدة في إدارة البيت، وحلا لها أن تأخذ المكـان الـذي أخذته منها هانم أفندي حين تزوجت هي راشـد، وسـعدت خديجة بمكانها هذا الجديد، وقد استطاعت جميلة في ذكاء أن تجعل خديجة دائما في مكانة عليا، أوامرها مقدسة وراحتهـا موفورة قبل أن تتوفر لزوجها أو حتى لحميها.

وحين مات راشد كان أسامة قد عمل في المحامـاة، ووجد نفسه في مهنته، فاستطاع أن يكون حكيما في تصرفاته المالية؛ يعيش عيشة كريمة، ولكنها بعيدة عن السفه.

وكان من الطبيعي أن تختلـف وأسـامة فـي أيـام زواجهما الأولى، ولم يكن أسامة يدهش أن يجد أبـاه وأمـه يقفان إلى جانب زوجته حتى وإن لم تكن محقة. فقـد وجـدا عندها طاعة الأبناء وحبهم.. هذه الطاعة وذلك الحب الـذي يصبح موضع إكبار إن جاء من غير الأبناء.

وحين مات راشد ظلت جميلة التي أصـبحت سـت البيت -فعلا لا تفضلا- أكثر عناية بحماتها وأكثر رعاية لها وحدبا عليها.

وحين تتابعت قوانين الإصلاح الزراعـي ابتلعـت الغالبية العظمى من ثروة فهمي عبد الحميد، فلما مات كان ما تركه من مال يكاد لا يقوم بشأن أولاده، فكان أسامة يعوضهم عما أصابهم كلما سنحت فرصة لا تجرح كرامتهم، وأصـبح يحث زوجته أن تعطي أخويها كل ما يحتاجان إليه حتـى لا يحسا بعنت الحياة، إلا أن الأخوين وجدا أن الأمر لا يمكـن أن يستمر على هذا المنوال، فكتب كل منهما توكيلا لأسـامة

ليدير ما بقي من أرضهما، واتجه الأكبر جميل إلى الكويت، واتجه الأصغر صبحي إلـى السـعودية. ومـرت الحيـاة بالزوجين أسامة وجميلة طيبة لا يشوبها إلا ما يشوب البيوت السعيدة من خلافات يمحوها الحب، أو شجار يعصـف بـه الحنان.

وأنجبا راشد وفهمي، وراحت الحياة تكرر نفسها مع الطفلين ليدرجا في طريق درج فيه أبواهما مـن قبـل، قـد تختلف تفاصيله، ولكن المعالم الأساسية فيه واحدة.

وحين كسدت سوق المحاماة المدنية، وفكر أسامة أن يتجه -كما اتجه كثير غيره- إلى البلاد العربية، جاءته أمـه مرسيلة لتغير متجه حياته جميعا.

فمنذ ذلك اليوم الذي قصدت فيه إلى مكتبـه أصـبح أسامة من أكبر المحامين في القضايا السياسية، ولم تكن هذه القضايا وحدها تكفي مكتبة، ولكن ذيوع اسمه فيها جعله بعيد الصيت في القضايا الجنائية، وانتعش المكتب، واستقر أسامة، وأصبحت الحياة أمامه هانئة سعيدة، ومن أسعد مـن رجـل بارع في عمله يعترف الجميع ببراعته؟ وهل هناك اعتراف

أعظم من تلك الدعوة التي جاءت إليه عن طريق ضابط دخل إلى مكتبه بغير إذن ليقول له في محاولة فجة للتلطف:

- سيادتك مطلوب.
- أنا؟
- نعم.
- من الذي يطلبني؟
- ستعرف حين تذهب.
- أذهب.
- سأذهب معك.
- إلى أين؟
- ستعرف.
- لماذا؟
- ستعرف ذلك أيضا.
- أهو قبض؟
- لا. المسألة لن تصل لهذا.
- لقد وصلت فعلا؟
- إنها مجرد دعوة.
- هل أستطيع الاعتذار؟

- طبعا لا.
- فهي أمر بالقبض وليست دعوة.
- سيادتك تستطيع أن تسميها كما تشاء.
- ألا أخبر البيت؟
- لا داعي.
- مجرد مشورة، أم هو أمر ألا أتصل؟
- لا داعي والسلام.
- ومن أين يأتي السلام؟
- تفضل.
- حاضر.

٢٣

حين وقعت هزيمة يونيو كان باسـل وشـهاب فـي باريس، وشاهدا الفضيحة العالمية على شاشات التليفزيـون، وراح كل منهما ينظر إلى الآخر تحجب صورة كل منهمـا عن الآخر دموع غزار لا تريد أن تنضب. ولم يكن عجيبـا أن يفكر كل منهما كأنما يواجهان حادثة أمهما مرة أخـرى، ولكنهما في هذه المرة أحسا أن التاريخ أيضا أصبح يعـرف هذا السر الذي لم يصبح سرا.

لم تصبح علاقة أمهما الآثمة حادثة يخفيهـا جـدار بيت، وإنما أصبحت مثار اهتمام العالم أجمـع.. التليفزيـون والإذاعة والصحف في العالم لا حديث لها إلا عن أمهمـا.. وتتكسر النصال على النصال.

لقد كانا يغفران للحاكم المصري كل ما يسمعانه من قهر الآدمية، وقتل الأبرياء، وخنق الكلمات، ومحق الـرأي،

وهدم الإنسان في سبيل أن يكون هناك جيش قـوى يواجـه العدو.

ثم وفي ساعات تصبح مصـر والعروبـة جميعـا أهزوءة التاريخ على يد الجيش المصري!

قلبانا عليك يا مصر.. عرفـا أن أمهمـا أصـيبت بالسرطان، وأنها تنتظر الموت في أية لحظة.

- نذهب.
- أتريد أن نذهب؟
- أمام الناس.
- وأمام نفسينا كيف سنراها!
- وأبي.
- هل نستطيع أن نصنع له شيئا؟
- الكثير.
- سيتجهم.
- ولكن قلبه سيفرح حين يرانا.
- هل رأيت قلبه؟
- لا. لم أره.

- كل الأبناء رأوا قلوب آبائهم في ابتسامة، في فـرح لقاء، في اهتمام بمرض، في سعادة بنجـاح.. هـل رأيت قلب أبيك؟!
- ولكن له قلبا.
- كيف نعرف؟
- لقد ستر على أمنا.
- يخشى على كبريائه.
- كان يستطيع أن يطلقها ولا يبدي الأسباب.
- لقد تعود أن تكون بجانبه.
- وهي لغيره؟
- إنه مشغول دائما بنفسه.
- لعله خاف أن يذكرنا أحد بسوء.
- تحاول أن تجعل لنا أهمية عنده.
- إننا جزء منه.
- في شهادة الميلاد فقط.
- إنه يخفي مشاعره.
- كان يستطيع أن يجعل مشاعره تخونه مرة واحدة ما دام استطاع أن يجعل زوجته تخونه دائما.

- إننا لا نستطيع أن نعرف ما بداخله.
- ما دمت لم أر له ظاهرا كيف أعرف داخله؟!
- هو الآن جازع.
- مرض زوجته قاتل.
- مصر كلها تعاني مرض مصر ومرض زوجته!!
- أتريد أن تسافر؟
- لا أعرف!
- فكر.
- أريد أن أرى أمي، وأريد أن أرى مصر، ولا أريـد أن أرى أمي ولا أريد أن أرى مصر.
- لم يبق لنا إلا نفسانا.
- أخشى أن نقتل أبانا بما نفعله.
- وأنا أخشى أن نقتله إذا رآنا ونحن على هذه الحال.
- لا نذهب إذن.
- لعلنا نكون أشفق عليه لو لم نذهب.
- ومصر.
- سنكون أشفق بنفسينا إذا لم نذهب.
- لعل مصر تحتاج إلينا.

- إنما تحتاج للمنافقين والدجالين والهتافين والهازلين.
- لعلها الآن تحتاج للجادين.
- لو كانت، ما سمت الهزيمة نكسة وكأنها أنفلونزا!
- إذن.
- نبقى.. فما بقي لنا إلا أنفسنا.

٢٤

- معك حق.. نبقى.. فما بقي لنا إلا أنفسنا.

استطاع وجدي أن يغـري زوجتـه بالإكثـار مـن الحفلات يدعو لها كل صاحب سلطة.. وهـذه الحفـلات لا تكلفه المأكل والمشرب فقط، وما هو بقليل. وإنما تكلف معها ملابس لكل حفل، وقد استطاعت ناهد في غمرة هذه الحفلات أن تبيع أملاكها جميعا، وراحت تشتري بأثمانها مجـوهرات لا يعرف زوجها عنها شيئا، ودبرت ناهـد أمرهـا أحسـن تدبير، وراحت تفحص الأشخاص الذين تعرفـت بهـم فـي حفلاتها واختارت أخطرهم شأنا، وساعدها الحظ، فكان أيضا أشدهم غباء، فألقت عليه شباكا قناصة لا تفلت صيدا.

وكان من الطبيعي أن يظن نفسه ساحر نساء، وهادم قلاع، وفاتح حصون، وما كان ذا فكر لـيمعن بـه النظـر، وليتبين أن التي يتوهم أنه سحرها إنما هي التي سحرته، وأن

القلاع التي هدمها كانت بلا جدران إلا بابا على الصـحراء، فهي مفتحة من جميع جوانبها، ومن ثم فلا حصـون هنـاك لتفتح.

أغرته ناهد، وقبل الإغراء، وأعد لها – ومـا كـان أيسر هذا بالنسبة إليه– شقة كانا يلتقيان بها.. ومـا هـي إلا لقاءات قليلة حتى واجهته ناهد:

- لا يمكن أن يستمر الحال هكذا.
- لماذا؟
- أتحسب أن أمرنا لن يعرف؟
- لا يمكن أن أعرف.
- إذن اطمئن.. لقد عرف فعلا.
- كيف؟
- أنت في نومة!!
- أنت التي تتوهمين أشياء لا ظل لها من الحقيقة.
- يا حبيبي فكر.. أنت شخصية مهمة جدا.. كيف يمكن أن تكون تنقلاتك مطلقة هكـذا مـن غيـر عيـون حواليك؟
- ماذا؟

- أتشك في هذا؟
- انتظري.. انتظري.. يظهر أنك على حق.
- كيف؟
- بالأمس.. نعم لك حق.. فعلا.
- ماذا حدث بالأمس؟
- قال لي كلاما مبهما فيه هذا المعنى.
- مثل ماذا؟
- مثل ماذا؟.. مثل.. كل واحد منكم حر.. وأنا عارف أن كثيرين منكم لهم ليلى يهيم بها.
- أرأيت؟! ولكن ماذا يعني بليلى؟
- لعله يقصد ليلى المجنون.
- أو غيرها.
- سأله أحدنا أي ليلى تقصد؟
- قال.. لك حق..
- ماذا قال؟
- قال ليلى.. ناهد.. أو جواهر لا يهم.
- أرأيت؟
- فعلا.

- إذن ماذا ترين؟
- ما دمنا في مصر لا أمان لنا.
- وماذا تريدين؟
- أسافر.
- إلى أين؟
- إلى الخارج.
- وأنا.
- أنت ستجد أن الاتصال بي في الخارج أسـهل مـن الاتصال بي هنا. الطيارات كلها تحت أمرك.. أقـيم في فرنسا أو سويسرا أو إنجلترا.. وكل شهر تأخـذ أسبوعا أو أكثر وأقل إجازة ونكون على حريتنا.
- متى تستطيعين السفر؟
- الآن إذا استطعت أنت.
- ووجدي؟
- اتركه لي.

***

- سأسافر.
- مع السلامة.

- إلى الأبد.
- ماذا؟
- وهل تعتقد أنني أصرف هذه المبالغ لأبقى في مصر؟
- وأنا؟
- أنت حر.
- أنا مستقبلي في مصر.
- مع من؟
- مع هؤلاء الذين نعرفهم.
- أنت مستقبلك الحقيقي في بيع رجولتك.
- ماذا تقولين؟
- لا تدعي الدهشة.. أنا عارفاك وأنت تعـرف أننـي عارفاك.
- وافرض.
- الستات اللواتي يشترين رجولتك تركن مصر.
- بعضهن ما زال هنا.
- هؤلاء لا يدفعن ما يكفيك.
- مع وظيفتي في الاتحاد الاشتراكي.
- والمخابرات.

- وتعرفين هذا أيضا؟
- أنت لا يكفيك هذا جميعه.
- إذن.
- سافر.
- وأرضي هنا.
- وماذا سيجري لها؟ ستبقى وستظل تدخر ريعها وتنفق من ريع أعمالك.
- أسافر معك.
- لا.. في الخارج لا يمكن.
- لا يمكن ماذا؟
- كنت هنا أشتريك لتكون ستارا أما في الخارج. فأنا لا أحتاج لهذا الستار والنقود في الخارج لها قيمة أخرى.. إنه في الخارج عملة صعبة.
- ماذا تعنين؟
- العقد بيننا انتهى.
- ولكن لا تستطيعين السفر من غير إذني.
- وجدي؟ هل أنت جاد؟
- طبعا لا.

- إذن.
- تكلمين الذي سهل لك السفر يرفع درجتي.
- في المخابرات أم في الاتحاد الاشتراكي؟
- المخابرات أهم.
- لا مانع.. العشرة على كل حال لا تهون.
- تظاهري أنني لن أوافق على السفر.
- تقصد الطلاق.
- كله واحد..
- هناك فرق.
- لم يختلف قولي، إنني لن أوافق على الطـلاق إلا إذا أرضاني هو وضحك علي بترقية.
- أتظن أنني أحتاج لدروسك.
- آسف.. نسيت نفسي.
- فعلا.

***

وسافرت ناهد، وحمل حقيبة المجوهرات صديقها ذو السلطات، وسلمها لها في الطائرة.. وكانـت التـذكرة إلـى لندن.. وكانت هذه التذكرة هي نهاية العلاقة بينهما فقد قـدر

لصاحب السلطان أن يفقد سلطانه، فلم يعد يستطيع السفر والشيء الذي مات دون أن يعرفه هو، أنه باليقين والقطع كان لن يجدها في ذلك العنوان الذي اتفقا على اللقاء فيه بلندن.

***

لم يكن عجيبا -إذًا- أن يستقبل أسامة عند اعتقاله وجدي جالسا على مكتبه في مبنى المخابرات العامة.

لما كان أسامة يعرف وجدي، ويعرف قصته جميعا، البادئة بمولده، والمارة بزواجه، والتي لم تنته بعد، لم يجد أسامة أية غرابة في هذه الابتسامة الفاجرة التي لا تبالي شيئًا والتي في نفس الوقت توضح أي درك من الوضاعة ابتدع صاحبها.

- أهلا أسامة بك.
- أهلا.
- ألا تذكرني؟
- أسف!
- أنا وجدي.. وجدي عبد المحسن.. والدي ووالدك كانا صديقين ونحن تقابلنا كثيرا ولكنك تنسى.

- فعلا كثيرا.
- أم تراك تنسى حين تحب أن تنسى؟
- المؤكد أن طريقة الدعوة أو الاستدعاء التي تفضلت بها علي تجعل الإنسان ينسى أشياء كثيرة. حتى التي لا يحب أن ينساها. وهل كثير علينا أن تعطينا بعض وقتك يا أستاذ..؟

وأدرك وجدي أنه يصر على تجاهله، ولكنه لا يعنى كثيرا برأي الآخرين. فهو يكمل في ابتسامته الفاجرة.

- وجدي.. وجدي يا أخي.
- المؤكد أن هذا ليس هو موضوع الحديث الذي تريدني فيه.
- طبعا هناك ما أريد أن أكلمك فيه.
- أنا تحت أمرك.
- أصبحت المحامي الأول في كل القضايا السياسية يا أسامة بك.
- وهل هذا ممنوع؟
- المظهر لا يليق.
- ما المظهر الذي لا يليق؟

- كأنك تأخذ من العهد موقفا مضادا.
- يا سيدي أنا أترافع في القضايا التي يرى العهـد أن يسمح للمحامين بالترافع فيها، والقضايا الأخـرى لا يترافع فيها أحد. فماذا يضير أن أكون أنا المحامي أم غيري؟
- خفف من قبول هذه القضايا.. يكفيك قضايا الجنايات، وخصوصا قضايا المخدرات.
- يكفيني من أية جهة تقصد؟
- القضايا الجنائية، وخاصة قضايا المخدرات أتعابهـا كثيرة.
- سيادتك شهادتك في القانون؟
- وأوشك وجدي أن يغضب بهذا التجاهل الكامل مـن أسامة. فهو واثق أنه يعرفه كل المعرفـة.. ولكنـه تماسك.
- في القانون.. أنا خريج دفعة..
- لا يهم.. المهم أني خريج حقوق.. أترى أن المحاماة أتعاب فقط.. ألا ترى فيها أي شيء آخر؟

- طبعا.. طبعا.. هذا لا شك فيه.. واجبك نحو العدالـة ونحو موكليك.
- الذي تقوله صحيح، ولو خلا من رنة السخرية يصبح هو الحقيقة.
- أنا لا أسخر أستغفر الله.
- المهم.. المطلوب مني الآن ألا أقبل قضايا سياسية.
- والله يستحسن.
- أهذا كل شيء؟
- ألف شكر.
- تسمح لي.
- تفضل.

وقام أسامة وأوصله وجـدي إلـى بـاب الغرفـة، وصافحه مرة أخرى، وأغلق الباب، وأخذ أسامة طريقه إلـى الباب الخارجي، ولكن ما هي إلا خطوات قلائل حتى وجـد نفسه محاطا بقوة من الشرطة، ثم أغلقت عليه أبواب السجن.

مكث أسامة في السجن لا يعرف شيئا عن تهمته، ولا تعرف أسرته عنه شيئا.

كان الذي رآه أسامة في السجن بعضـا ممـا كـان يسمعه. لم يقع عليه هو تعذيب جسماني؛ فهو لم يكن يخفـي شيئا يريدونه أن يبديه، ولكنه عومل كمـا تعامـل الكـلاب الجرباء. وكانت هذه المعاملة مع ما يرى الآخرون يجرعونه نوعا من التدليل والرفاهية.

انصب عذاب الآخرين على نفس أسامة حتى لقد كان يخيل إليه أنه يعذب عذابهم أجمعين.. ولم يكن يشعر بنسـمة فرح إلا حين يموت أحد المسجونين، فيحس أسامة أن إنسانا أنقذه الله من براثن الغيلان المتشحة بجلود الآدميين، والعجب أن أسامة كان يحس أن الذين يقومون بالتعذيب في حاجة إلى الشفقة؛ لأنهم هم أنفسهم ما هم إلا أصابع الحاكم يفترس بهـا آدمية البشر، وإنسانية الإنسان، ويتمنى الموت للمسـجونين جميعا، ولنفسه قبلهم، ويذكر قول المتنبي:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايـا أن يكن أمانيا.

وكان يعجب.. أيستطيع الحاكم أن ينـام.. أتسـتطيع أصابعه هذه أن يهدأ لها ضمير.. وما هي إلا أيام حتى رأى في وجوه الذين يقومون بالتعذيب علامات لم يكن قد تعـرف

عليها أول الأمر. وكيف لإنسان أن يرى على وجه وحـش قسمات آدمي ويتعرف عليها؟ علامات لـم يشـاهدها علـى وجوه بشر قبل اليوم.

لقد تغيرت ملامح البشرية في وجوههم.. انقلبوا إلى جنس من المخلوقات غريب عن الأجناس التي يعرفها الكون أو يألفها الناس.. نوع من المخلوقات؟ لا هو إنسان ولا هـو حيوان.. ولم يستغرب هذا الذي تبينه. فالإنسان لا يستطيع أن يصب هذا العذاب جميعه على مخلوق آخر، إنسانًا كان هـذا المخلوق، أو كان حيوانا.

والحيوان حين يهاجم الفريسة لا يقدر أنها إنسـان أو هي حيوان، وإنما فيها طعامه، وهو يريد أن يأكل، أو يـرى فيها عدوه، وهو يدافع عـن نفسـه، فـالحيوان المفتـرس المتوحش طبيعي ومعقول في كل هجوم يقوم بـه، وعملـه جميعه له مبرره ومعقوليته. فما هذا الجنس -إذًا- الذي يعمل في هذه السجون؟ وأين يصنعه العهد وكيف ركبه؟ ومـن أي مادة تكون هيكله وضميره؟ إن المتفرس في وجوههم يـرى مادة جديدة من المخلوقات يشك كثيرا أن تكون يد الرحمن قد مستها.. إنما هم كالحاكم الذي يأمرهم! سرطانات بشـرية..

خلايا تفجرت من طين بلا روح.. ومن شر بلا خير، ومـن مادة متوحشة عجنها إبليس وأخلى تركيبها من ضمير أو قلب أو شعور.

مر بأسامة شهر واثنان، وأوشك الثالـث أن يكتمـل، فإذا لغط يشب في السجن، وهمهمات وجمجمة وهمس يفضي إلى همس، ورءوس تميل في بـراءة، وتعتـدل فـي أسـى وجزع.. إنها حرب يونيه.. وفتحت أبواب السجون لا لتخرج أحدا وإنما لتبتلع آخرين عرف منهم أسامة كثيرين.. ورآهـم وهم يجلسونهم القرفصاء فلا تحتمل سيقانهم. فأغلبهم تجاوز الشباب، وأصبح يتوكأ إلى الشيخوخة، وما تحتمل سيقانهم ما يريدونهم عليه، ولكنهم جلسوا القرفصاء، ورفعوا أيديهم فوق رءوسهم كقرود يدربها عفريت من الجن.

الوجوه غير البشرية، وغير الحيوانية، فيها رعـب، وفيها حيرة، وفيها جزع.. إنها تخـاف مـن المسـجونين.. المسجونون عزل وبلا سـلاح، وهـا هـم أولاء جالسـون القرفصاء وأيديهم فوق رءوسهم، والسجانون بيدهم الأسواط، وبيدهم أدوات التعذيب الكهربية والحديدية، وبيـدهم دائمـا الأسلحة النارية والمدافع السريعة الطلقات.

ولكن المسلحين بآلات التعذيب وبالأسواط بالبـارود والمدافع يخافون من هؤلاء العـزل الجالسـين القرفصـاء، والواضعين أيديهم فوق رءوسهم.

أهو موقف الحق الأشم أمام الظلم الخـامس.. أم أن الخلايا السرطانية من أعوان السرطان الأعظم قد أصـابتها روح من البشرية ألقتها إلى نفوسهم أنباء الحرب.. لا أحـد يدري !!

مرت أسابيع قلائل بعد الخامس من يونيه، وأفـرج عن بعض المسجونين وكان أسامة من بينهم.

خرج فوجد أمواله جميعا تحـت الحراسـة والبقيـة الباقية من أمواله زوجته. بل إن أموال خديجة وضعت تحت الحراسة، وصدر الأمر الخاص بها باسم حرم المرحوم راشد برهان. ولست أدري هل ارتجفت يد المارد الرعديد، وهـو يضع تحت الحراسة أموال ميت أصبح في ذمة الله، أم أنهـا كانت ثابتة متبجحة؟ أغلب الأمر أنها لم ترتجف. فالرجفة لا تبتعثها إلا بقية من آدمية.. وهيهات ولو عرفوا الحق لتبـين لهم أن خديجة لم ترث عن زوجها شيئا، وإنما كان مالها هو ما بقي لها عن أبيها، ولكن ما الفرق؟!

والعجيب ولو أن شيئًا لم يكن عجيبا في ذلك الـزمن أن أمر الحراسة يقول: حرم المرحوم.. كيف تجرأ مصـدر الأمر وخط كلمة توحي بالرحمة ليوقع بها قرارا لا يتصـل بأي رحمة؟! إن أغلب مواد القانون تقضي بأن يعاقب المذنب بغرامة قدرها كذا من المال، أو يسجن قدره كذا من الشهور أو السنين.. فالغرامة المالية -إذًا- تستوي عند القانون مـع العقاب الجسماني. وهكذا يصبح الاستيلاء الكامل على مـال شخص ما حكما بالإعدام المدني، وبلا محاكمة.

ومن عجب أن يصدروا حكما بالإعدام المدني علـى شخص مات فعلا.. كيف يريدون أن يقتلـوا مـن مـات ؟ القانون يسمي هذه: الجريمة المستحيلة؛ لأن القتل لا يكون إلا لحياة، ولا سبيل لأحد أن يقتل ميتا.. ولكن مع ذلك العهد لـم يكن شيء مستحيلا.

لم يأبه أسامة، وإنما عاد إلى مكتبه، وواصل طريقه في الحياة، وواصلت الحياة طريقها إلى جانبه.. صعبة عنيفة ولكنها شريفة.. وتسير.

***

حين تفجر الحق في مصر، وحين أعاد الحكم أموال الناس إليهم، وحين انشدخ الظلام عن الصباح، وحين عادت الحياة إلى الحياة، أحس أسامة أنه استطاع أن يجتاز الأزمـة الطاحنة.. ربمـا اسـتطاع أبـي أن يركـب الموتوسـيكل (السيدكار)، وربما عجزت أن أجد في بعض الفترات دراجة أتنقل عليها.. ولكن أبي استطاع أن يسير فوق الأزمة علـى موتوسيكل، واستطعت أنا أن أسير عليها بقدمي.

ولم ينكس أبي رأسه للفقر، ولم أنكـس أنـا رأسـي للطغيان.. عجبا ألم يكن هو أنا ؟ وأنا أربأ بشرفي أن يدنسه ذهب الطغيان أو يذله تعذيبه.. مـن يـدري لعـل روحـه تلبستني.. أو ربما.. لا أدري.. ربما كنت أنا شجاعا.. مـن يدري.. من سيذكر لي أنني لم أنحن.. لم أنافق.. لـم أذل.. وماذا يعنيني أن يذكر ذلك أحد.. يكفي أنني أنا أذكـر هـذا لنفسي.. وحسبي، وفوق الحسب أنني أستطيع أن أواجه نفسي لا أخافها ولا أستخذي.

٢٥

قال شهاب:

- اليوم نعود.
- نعم نعود.
- لقد انتصرت مصر.
- إني أحس أن أمي التي ماتت ذهبـت إلـى الأبـد، وعادت لي أم جديدة شريفة مثل هذا الانتظار.. أم لا صلة لها بتلك التي تشردنا لنبتعد عنها.
- هناك أبونا..لعلنا نجده قد تغير.
- لا أظن.
- وهل كنت تظن أن مصر ستنتصر؟
- اسمع. لماذا لا نتغير نحن؟
- كيف؟
- إن أبانا لم يشعرنا أنه يحبنا.

- نعم.
- فهل أشعرناه نحن أننا نحبه؟

ونظر باسل إلى أخيه طويلا، وراحت ابتسامة تنداح على شفتيه لتعلو إلى وجنتيه، ثم إلى جبهته، وخيل إليه وهو ينظر إلى أخيه، أنه كأنما ينظر إلى مرآة، ولـف الأخـوين عبير مصري له ذلك الأريج الخاص الذي لا يعرفه إلا مـن نبت في أرض مصر، ومن ماء النيل، ترن في أذنيـه منـذ ولادته: الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.